Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميخائيل نعيمه

صوت العالم

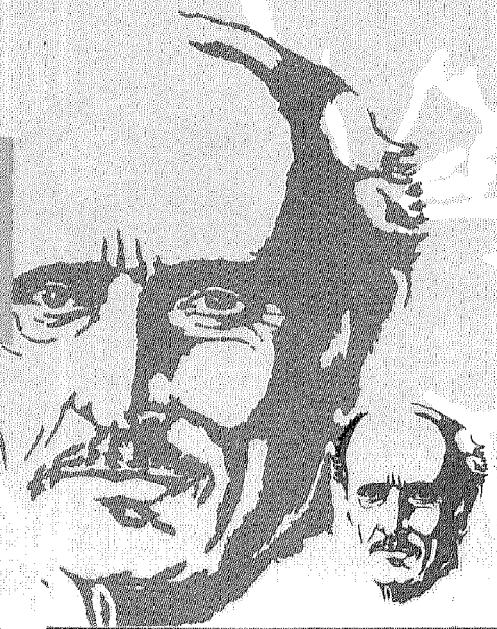

Bibliotheca Alexandrina
0127005

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صوت العالم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميخائيل نعيمه

صوت العالم

مؤسسة نوفل ش.م.م
بيروت - لبنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جَميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثامنة

١٩٨٨

© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل - شارع المعماري - ص.ب ١١-٢١٦١ - تلفون ٨٩٨ ٣٥٤ - ٣٥٤٣٩٤ - تلكس نوستن ٢٢٢١٠ - بيروت - لبنان
NAUFAL BLDG. - MAMARI STR. - P.O.BOX 11-2161 - PHONE 354898 - 354394 - TELEX NAUSTN 22210 LE - BEIRUT - LEBANON

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صوت العالم

في الكون أصوات لا تستوعبها أذن ولا يحصيها خيال . فللكواكب في أفلاكها رنّات ، وللنسائم والرياح في أجوائها هينمات وولولات ، وللأمواج في بحارها زفير وهدير ، وللأعشاب والأشجار وشوشة وحفيف ، وللحشرات بأنواعها دبيب وطنين ، وللطير بأشكالها صفير وترنيم . ثم هنالك الحيوان بأصواته . وثم الإنسان بأصواته — وما أكثر أصواته .

يا لها من جوقة لا توصف . ويا له من لحن ساحر رهيب . وألف طوبى للأذن التي تستطيع سماعه ، وللقلب الذي يسكر به ، وللفكر الذي يضيع في معانيه .

أصوات ، وأصوات ، وأصوات . وكلّها يقول أشياء وأشياء ، ويهدف إلى أشياء وأشياء ، ولكنّها في النهاية تندغم كلّها في صوت واحد هو صوت الكون الشامل ، وتهدف إلى شيء واحد هو هدف الكون الأبدي . فأين صوت الإنسانية من ذلك الصوت ، وأين من ذلك الهدف هدفها ؟

وهل للإنسانيّة صوت ، وهل لها هدف ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كنا حتى أمسنا القريب إذا تكلّم أحد عن صوت الإنسانيّة حملنا كلامه على محمل المجاز . ذاك لأن الأرض كانت مترامية الأطراف ، شاسعة الأبعاد ، وكان أبناؤها يعيشون قبائل وشعوباً منطوية على ذاتها . لا تسمع غير أصواتها وغير القليل من أصوات جيرانها ، ولا تعرف غير أخبارها وأخبارهم . وفي الماضي السحيق كانت القبائل والشعوب تحسب حدودها حدود الأرض .

أما اليوم فقد تصرّمت الأبعاد ، وتداعت السياجات التي كانت تفصل الأمم بعضها عن بعض . فإذا بالقصيّ يدنو ، وبالمجهول يغدو معلوماً ؛ وإذا بالأمم صغيرها وكبيرها ، وبعيدها وقريبها تتبادل التحيات والشتائم ، والبضائع والقنابل ، والسلام والدم ؛ وإذا بالإنسانيّة تشكو أوجاعاً مشتركة ، وبصوت واحد تطلب العافية والسلام والطمأنينة .

لو أن كارثة كانهيار سد مأرب حدثت في أيامنا لسمعتْ بها في دقائق معدودة كل شعوب الأرض . ولكنها في زمانها ما تعدت البقعة التي نزلت بها إلاّ بعد أجيال . ولو أن الفراعنة بنوا أهرامهم في هذه الأيام لكانت كل حركة من حركاتهم ، وكل كلمة من كلماتهم ، وكل ما يتصل بالبناء من تفاصيل لا نهاية لها ، تذاع على العالم مرّات في النهار . أما في زمانها فما درى بها إلاّ البعض من أهل مصر والقليل من جيرانهم في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولو أن كولومبوس اكتشف اليوم عالماً جديداً لطار الخبر في لمحة الطرف من القطب إلى القطب ومن المشارق إلى المغارب . أما منذ أربعة قرون ونصف القرن فاكتشاف أميركا لم يدر به حتى سكان أميركا إلاّ بعد أعوام وأعوام ، ناهيكم بسكّان الهند والصين والجزر المنتشرة في عرض البحار .

كذلك قولوا في أهمّ الحوادث من دينيّة وزمنيّة : كخروج العبرانيين من مصر ، ورسالات موسى ، والمسيح ، ومحمّد في شرقنا هذا ، وبوذا في الهند ، وزارادشت في فارس . وكالحروب التي توالت موجاتها على الأرض فما تركت بقعة من بقاعها المعروفة إلاّ اتّخذتها ميداناً لها .

لقد كانت تلك الحوادث الجسام تمرّ بالأرض من غير أن يدري بها في وقتها إلاّ القليل من أبناء الأرض . ولولا التاريخ الذي يدأب أبداً في وصل ماضينا بحاضرنا لما استطعنا أن نصوّر الإنسانيّة الماضية إلاّ أعضاء مفككة لا تربطها أعصاب واحدة في جسم واحد . ولكن التاريخ بربطه ما كان منّا بما هو كائن يسهّل علينا أن نرى الإنسانيّة ، على وفرة شعوبها وتعدّد مسالكها ، قافلة واحدة تسير في طريق واحد إلى هدف واحد . وتلك حسنة من حسنات التاريخ تكفّر عن جميع سيّئاته .

إذن كانت الإنسانيّة في كل عصورها جسداً واحداً وإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدت أعضاؤها متباعدة ، متقاطعة ، وبدت غاياتها متشاكسة ، متضاربة . والجسم الإنساني الذي نعرفه اليوم هو الجسم الذي عرفته آلاف السنين من قبل ؛ ولكنه قد تطور . فإذا به ما هو الآن .

وإذن كانت القبائل والشعوب تتعارف وتتنافر ، وتتصادق وتتعادى ، وتتعاون وتتطاحن . ولكنها — من حيث لا تدري — كانت تعمل يداً واحدة على حفظ ذلك الجسم الإنساني من الهلاك وعلى الوصول به إلى ما هو عليه اليوم ، وإلى حيث هو اليوم .

وإذن كانن للإنسانيّة صوت في جوقة الكون منذ أن كانت الإنسانيّة . وكان لصوتها هدف . أمّا الصوت فبإمكاننا لو كانت لنا الأذن الحسّاسة أن نسمعه في صوت إنسانيّة اليوم على حد ما نسمع في صوت الشباب صوت الطفولة . وأمّا الهدف فباستطاعتنا لو كانت لنا العين النفّاذة أن نتبيّنه من خلال أهدافها اليوم .

فماذا تقول إنسانيّة اليوم ، وإلى ماذا تهدف ؟

ما شهد العالم في كل ما شهد سيلاً جارفاً من الكلام كالذي يشهده اليوم . فهو ينهلُّ علينا بغير انقطاع من شفاه الأثير ، ويتفجّر من دواليب المطابع ، ويفور من بين عيدان المنابر . ولا فرق من هذا القبيل بين غرب وشرق ، أو بين بلد كبير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبلد صغير . فالتيار واحد في كل مكان .

ما ذاك لأن العالم صام زماناً عن الكلام فراح يعوّض عن صيامه بالثرثرة . فالعالم ما عرف الصمت يوماً من أيام حياته ، ولكنه ما عرف كذلك مرحلة كثرت فيها الوسائل لنقل الكلام كالمرحلة التي هو فيها اليوم . فالصحف من يومية وأسبوعية وشهرية أكثر من الهمّ على القلب . والكتب بجميع أصنافها تقفز من العدم إلى الوجود قفز الجنادب في المرجة الخضراء . ومحطّات الإذاعة اللاّسلكيّة لا تفتر تحشو الآذان بما قيل وما يقال . حتى كأن العالم في حمّى وفي هذيان . أو كأن الناس جنّ جنونهم فتحوّلت الأرض إلى مارستان .

في هذا السيل الجارف من القيل والقال كلمات تتردّد أكثر من غيرها على كل شفة ولسان : الحرب والسلم . الاستعمار والاستقلال . الرخص والغلاء . الاستثمار والاحتكار . الفوضى والاستقرار . الذهب الأسود والذهب الأصفر . الأسواق الحرّة والأسواق المقفلة . وسلسلة لا نهاية لها من الأزمات : أزمة التموين ، وأزمة السكن ، وأزمة النقد ، وأزمة المدارس ، وأزمة المواصلات ، وسواها ثم سواها من الأزمات . وهذه الكلمات والأزمات تضخّمها الأغراض في ذهن السامع إلى حد أن تصمّ أذنيْه وتكفّ عينيه عن كل أمر عداها . فكأنها من حياة البشرية لبابها ، وكل ما عداها قشور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكأن البشريّة إذا مـــا نالت السّلم والاستقلال والرخص والاستقرار نالت المعرفة التي لا سلم ولا استقلال ولا استقرار بدونها . أو كأن البشريّة إذا انحلّت أزماتها الماديّة انحلّت في الحال أزماتها الروحية . فغدت لا تكذب ولا تظلم ولا تسرق ولا تقتل ولا تزني ولا تبغض ولا تطمع من خيرات الأرض بأكثر من حاجتها ، ولا تمرض ، ولا تتألم ، ولا تموت . . . ألا ليت القائمين على مقدرات البشريّة — وبالأحرى أولئك الذين يتوهّمون أنهم القائمون على مقدراتها — ألا ليتهم يعلمون أن أزماتها إنما هي أزمات قلوب لا أزمات بطون . وأزمات أفكار لا أزمات جيوب .

كنا إلى عهد قريب لا نحمل من هموم الأرض إلاّ همومنا ، ولا نبثُّ في أذن الفضاء غيرَ شكوانا ونجوانا . أمّا اليوم فما ندري هموم من نحمل فوق همومنا ، وشكوى أيِّ الناس ونجوى أيِّ الشعوب نبث إلى جانب شكوانا ونجوانا . فما من أمّة إلاّ تستغيث ، وتعربد ، وتهدّد ، وتندّد . وما من دولة إلاّ تطمح إلى تركيز علَمها على هامة الجوزاء . وما من بلد إلاّ ينبح على بلد آخر ، أو يكشّر لبلدان أُخرى .

ما هذا الذي نحن فيه ؟ أهو عتاب الأصحاب بعد طول الغياب ؛ والعتاب صابون القلوب ؟

أجل . إنّه لعتاب . ولكنه — ويا للأسف — أبعد ما يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن الصابون .

أم هي الفوضى تغلي مراجلها وتفور ؟ أم أن ربّان سفينة البشريّة قضى وكفّه على الدفّة ، فتاهت السفينة بين الريح والموج ، ودبّ الذعر في الركّاب ، فكانت البلبلة ، وكانت الجلبة ، وكانت الضوضاء التي تسمعون ؟

وهل لسفينة البشريّة ربّان ، ومن هو ؟

إنكم لو صدّقتم كل ما تسمعون ، بل بعض ما تسمعون ، لقلتم إن للبشريّة ربابنة لا ربّاناً واحداً ، وإنهم على سلامتها أبداً ساهرون . وها هم اليوم — أكثر منهم في كل يوم — منهمكون في تنظيم شؤونها ، وتنظيف بيتها ، والقضاء على أوبئة ما تزال تنهشها نهشاً . فهم — والهف قلبي عليهم — يصلون الليل بالنهار في دأبهم وراء إسعاد الناس وتحريرهم من الخوف والعوز والوصول بهم إلى ميناء السلام . وها هي ذي أصواتهم تتسابق إلى الآذان في كل مكان وترتفع فوق كل صوت . وها هي ذي أعمالهم على كل شفة ولسان . وما من شك يخامرهم أبداً أو يخامر سامعيهم والمعجبين بتفانيهم في أنهم إذ يتكلمون فبلسان البشريّة يتكلّمون . وأنهم إذ يقرّون أمراً فلخير البشريّة ما يقرّون . وأنهم يعرفون هدف البشريّة . فهم إلى ذلك الهدف بسفينة البشريّة سائرون .

أولئك هم ساسة العالم . وأولئك هم رجال الاقتصاد فيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسياسة والاقتصاد ما برحا حليفين منذ أصبح الناس جماعات تساس وتنعم بخيرات الأرض والسماء . فالسياسة تبني بيتها على الاقتصاد . والاقتصاد يشيد صرحه على السياسة . والاثنان يقيمان حصنهما على حد السيف .

ذاك هو التحالف الثلاثي الذي ما تصدّع حتى اليوم . وأولئك هم الحلفاء الأوفياء الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإنسانية والسير بها إلى مراتع السعادة ومروج الهناء . فلا عجب أن ترتفع أصواتهم فوق كل صوت وفي كل زمان ومكان . فهم في اعتقادهم واعتقاد الناس إنما يتكلمون بلسان البشريّة جمعاء . فالأرض منبرهم . وآذان الناس أينما كانوا وقفٌ على ما يقولون . والأرض ميدانهم ، والناس جندهم ، والقيادة لهم . فما على الناس إلاّ الامتثال لما يأمرون وينهون .

ولولا أن الشمس ما تزال تشرق وتغرب في مواعيدها ، والكواكب ما تنفك تدور وتتغامز في أفلاكها ؛ ولولا أن الأرض ما تبرح أرضاً ، فالبحار تنشد أحلامها الأبدية ضمن شطآنها ، وما في البحار من غريب العوالم يحيا حياته بنظام ، والأشجار تُزهر وتورق وتُثمر ثم تتعرّى لتعود فتزهر وتورق وتثمر من جديد ؛ والطير تتزاوج وتبني أوكارها ، وتبيض وتنقف فراخها ؛ والحيوان يأكل ويشرب ويتناسل ويموت ، ومثله الإنسان ، والليل يطوي النهار فلا يلبث النهار أن يطوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الليل ؛ والفصول تزدرد الفصول ، ثم تتقيّأها لتعود فتزدردها وتتقيّأها عاماً بعد عام وقرناً تلو قرن . أقول : لولا كل ذلك لأوهمنا رجال الحلف الثلاثي بأنهم ليسوا ربابنة البشريّة لا غير ، بل ربابنة المسكونة بأسرها . فالحياة في يمناهم ، والموت في يسراهم ، والحق في أفواههم ، والعدل في نصالهم ، والحرية من شقوق أقلامهم . وهم مهندسو العالم ، وهم البنّاؤون .

وماذا عساهم يهندسون ويبنون ؟

إنهم ليهندسون عالماً كله سدود وحدود ، وذلك في فضاء لا سدود فيه ولا حدود ، ولكائن عجيب اسمه الإنسان ما فتىء منذ أن كان يناضل بكل قواه ضد الحدود والسدود . فهو قد اتّخذ من ذكائه أجنحة ليتخلّص بها من حدود المسافات تكبّل رجليه البطيئتين . مثلما جعل للأثير ألسنة تنطق بلسانه ، وآذاناً تسمع بأُذنه ليعتق لسانه وتتحرّر أُذنه ممّا قام في سبيلهما من سدود . وهو قد فتح قلبه لكل القلوب مهما يكن لون أصحابها أو دينهم أو موطنهم . فدمعة في عين إنسان أسود تفهمها دمعة في عين إنسان أبيض . وبسمة على وجهٍ أحمر ليست غريبة عن بسمة على وجهٍ أصفر . فالحزن والفرح ، والموت والحياة لا تعرف السدود والحدود ، ولا موطن لها إلاّ قلب الإنسان . وقلب الإنسان هو هو في كل مكان . أمّا فكره ، وأمّا خياله فمن ذا يستطيع أن يقيم في سبيلهما حدوداً أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سدوداً ؟ أليست أفكار الناس تتلاقح وتتوالد بغير انقطاع هازئة بالحدود وساخرة بالسدود ؟

لأيسر أن تقيموا الحدود بين أشعة الشمس ، والسدود بين نسمات الجو أو أمواج البحر من أن تقيموها بين فصيلة وفصيلة من الناس ، أو بين قطر وقطر من أقطار الأرض . فأفكار الناس وأحاسيسهم وأحلامهم في اتصال أبدي رغم المسافات والعقبات ، ورغم الحدود والسدود ، ورغم كل ما يبذله رجال السياسة والاقتصاد والحرب للحؤول دون ذلك الاتصال . أما ترون إلى الآداب والعلوم والفنون كيف تتخطّى الحدود وتخترق السدود لتصل الناس أينما كانوا ، ومن أيّ جنس كانوا ، بعضهم ببعض ؟ فابن رشد ، وإن يكن عربي المنبت واللسان ، ليس للعرب وحدهم ولا هو تناول أفكاره منهم دون غيرهم من الأمم . وشكسبير ، وإن يكن إنكليزي المولد ، ليس للإنكليز وحدهم ، ولا هو استمدّ أدبه من تربة إنكلترا وحدها . كذلك باستور ليس للفرنسيين ، ولا بتهوفن للألمان ، ولا تولستوي للروس، ولا أديسون للأميركيين بل للناس أجمعين . وهكذا قولوا في كل مَن أنجبتهم الإنسانية من عباقرة ورسل ورفعتهم مناثر لكل من طلب النور من أبنائها بقطع النظر عن الجنس والموطن واللسان .

إن تكن أفكار الناس وأحاسيسهم وأحلامهم في تزاوج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دائم عبر الحدود والسدود ، فأيٌّ مبرّر بعد للسدود والحدود ؟ أليس الذين يخلقونها ثم ينفقون جهودهم وجهود العالم في تدعيمها وتثبيتها إنما يهدرون جهودهم وجهود العالم إذ يعاندون الله ، ويقاومون الطبيعة ، ويعرقلون خطى الإنسان في سيره إلى هدفه البعيد ، ألا وهو التخلّص من كل الحدود والسدود ؟ أليسوا يحاولون المستحيل ؟ فما دامت أفكار الناس ومشاعرهم وأشواقهم في اتصال لا انفصال فيه ، فأي بطولة هي التي تقتص منهم بتقييد أيديهم وأرجلهم لا غير ؟ وأي حكمة في تلك البطولة ؟ ومتى كان الإنسان بيديه ورجليه قبل أن يكون بفكره وقلبه ؟ ومتى كان ببطنه قبل أن يكون بخياله ؟ أو بلون جلده وشكل جمجمته قبل أن يكون بلون إيمانه وشكل هدفه ؟

ذاك هو العالم الذي يهندسه لنا رجال التحالف الثلاثي ـ عالم حدود وسدود ما ثبتت يوماً لريح ولا جلبت للناس غير الكروب والحروب . ومن ثمّ فهم يرسمون ما يرسمون ، ويخطّطون ما يخطّطون في معزل تام عن الكون ، وعن مشيئة رب الكون . وهل عالمنا البشري بالنسبة إلى الكون إلاّ كنقطة في مصحف ؟ إنها لنقطة ذات قيمة من غير شك . ولكنها ليست المصحف . ولكنها تجهل القصد من المصحف ومن وجودها فيه حيث هي . أمّا كاتب المصحف فيعرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما تجهل .

وهل مشيئتنا إزاء مشيئة رب الكون إلاّ كخيط واحد في نسيج خيوطه لا تحصى ولا تُعد ؟ إنّه لخيط لا يكتمل النسيج بدونه . فهو من الأهميّة بمكان . ولكنّه لا يعرف الصلات الّتي تربطه بباقي الخيوط ، ولا قصد الحائك منه ومنها . أمّا الحائك فيعرف . فللكائنات من وجودنا غايات ، مثلما لنا من وجودها غايات . ونحن ما لم نعرف غاية الكون منّا وغايتنا من الكون ، تعذّر علينا التوفيق بين الاثنتين . ونحن ما لم نوفّق بين الغايتين ، بقينا ريشة في مهب الريح وخشبة على غارب اليمّ .

إن مثّل الذين يهندسون عالم الإنسان في معزل عن سائر العوالم هو مثل جماعة من الفئران استوطنت مخزناً من مخازن سفينة في بحر . ثم راحت تتسابق وتتقاتل وتتناهش على ما في المخزن من مأكل ومشرب ، وتتشاحن في أيها الأهم والأشرف والأقدر على تسيير السفينة . وإذ أعياها القتال راحت تعقد المؤتمرات لاقتسام ما في المخزن ، ولتقرير الاتجاه الذي يجب أن تتخذه السفينة ؛ كل ذلك من غير أن تحسب أقل حساب لركاب السفينة وحاجاتهم إلى ما في مخازنها ، ولا للبحر وأنوائه، ولا للكواكب ومجاريها ، ولا لربّان السفينة ويده الّتي على الدفّة ، ومشيئته الّتي من خلف يده .

كيف للإنسان أن ينظّم عالمه من غير أن ينظّم كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العوالم التي تتشابك حياته بحياتها تشابكاً لا ينفذ البصر إلى أوله ولا البصيرة إلى آخره ؟

كيف له أن يوزّع خيرات الأرض والسماء بالإنصاف وما هي من عنده ولا في قبضته ؟ ولو شاءت الأرض والسماء لحبستا عنه خيراتهما ؛ فعليه قبل أن يحالف إنساناً مثله أن يحالف السماء والأرض أولاً . وإلاّ كان ما يزرعه عذاباً مرّاً، وما يحصده عذاباً أمرّ .

كيف له أن يتحرّر من جاره وهو وجاره عبدان للتراب وكل ما ينبته التراب ، وللهواء وكل ما يتنفسه الهواء ، وللبحر وكل ما يقذفه البحر ، وللكواكب وكل ما تفعله الكواكب ؟ وماذا أقول في عبوديّته لأهوائه ولجهله وادعائه ؟

كيف له أن يسيّر سفينته ، وما هو وسفينته سوى بعض من حمولة سفينة لا حدود لها ولا سدود في وجهها — هي سفينة المسكونة ؟

كيف له أن يعرف اتجاهه من غير أن يعرف اتجاه السفينة الكبرى ومشيئة ربّانها — وهي مشيئة الله ؟

كيف له أن يعرف مشيئة الله من غير أن يؤمن بالله ؟

وأخيراً ، كيف له أن يؤمن بالله من غير أن يؤمن بنفسه ؟

وإذن كان الإيمان بالله وبالإنسان الذي هو صورة الله ومثاله حجر الزاوية في حياة الإنسان . وكل بنيان لا يقوم عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصيره حتماً إلى الانهيار . وهو مصير العالم الذي هندسه من قبل ، ويهندسه اليوم رجال الحلف الثلاثي . ذاك لأنهم لا يسمعون ولا يعون من أصوات العالم إلاّ قرقرة البطون ، وإلا فحيح الشهوات السود في قلوب ما تزال رهينة الجوع والعطش إلى أخسّ اللذّات البهيميّة وأقذر موارد « المجد » و« الشرف » . أمّا حنين الإنسان الأبدي إلى الانعتاق من الحدود والسدود والوصول إلى حيث لا قيود ولا سدود — أمّا ذلك الحنين الصارخ الصابر فلا يسمعونه ولا يعونه . في حين أن ذلك هو صوت العالم بأسره من الأزل وإلى الأبد .

وعلامَ يزمع مهندسو العالم أن يبنوا العالم الذي يهندسون ؟

إنهم ليحاولون بناءه على براكين النفط . . . وعلى أسنمة الأمواج ! وعلى الفلس ، وعلى شفرة السيف . ومن بعد ذلك على ما يستطيعون أن يوقظوه في قلوب الناس من جشع وبغض وحذر وخوف ، وأن يثيروه في أفكارهم من قلق وشك وسوء تفاهم وقطيعة . أما الصدق الذي ما مات بعد في الناس ؛ وأمّا المروءة وحبّ التعاون والشعور بالمسؤوليّة الإنسانيّة المشتركة تجاه ما يزال عاصياً وغامضاً على الإنسان ؛ وأما الإيمان بالإنسان وهدفه البعيد الذي يفوق الوصف والتصوّر ، فهذه كلها لا تصلح في نظر الحلف الثلاثي أُسساً للبناء . مثلما لا يصلح حارساً له إلاّ المدفع . ذلك المدفع بعينه الذي ما حرس إلى اليوم بناء إلاّ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دكّه . وها هي ذي أصوات بنّائي العالم تملأ الجو والصحف والناس يصغون بلهفة ، ويقرؤون بشوق ، ويهلّلون ، ويكبرون — وينتظرون .

أما أنا — أعاذني الله وإيّاكم من خيلاء هذه الكلمة ومتعنا بوداعتها — فقد رأيت السياسة كالبركة العكرة ، ورأيت السياسيين كالأولاد يغتسلون فيها فلا يزيدونها بحركاتهم إلاّ عكراً ، ثم يعجبون لها كيف لا تصفو ولا تسكن . ولو أنهم تركوها وشأنها لصفت من تلقائها وسكنت .

ورأيت الاقتصاد والاقتصاديّين يقتلون بعض الناس بالتخمة ، وأكثرهم بالجوع ، ثم يعجبون لهذا العالم كيف لا يستقر على حال بين جائعه ومتخمه . ولو أنهم تركوا أمر توزيع الأرزاق لباعث الأرزاق لأراحوا الناس واستراحوا . فللحياة ضرع بثديّ كثيرة . وعيال الحياة تتناول من ضرعها كلٌّ على قدر طاقته وحاجته . فقيمة الغذاء ليست في كميّته على قدر ما هي في مناسبته للمغتذي . ومن ثمّ فشأن الحياة مع الراضعين من ضرعها فوق حاجتهم أن يتحمّض لبنها في جوفهم ويتحوّل سمّاً زعافاً . فلها العقاب ولها الثواب . لا للساسة ولا للاقتصاديين .

لا . ما بنت السياسة حتى اليوم بيتاً إلاّ قوّضته السياسة . ولا شاد الاقتصاد صرحاً إلاّ دكّه الاقتصاد . ولا قامت مملكة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على حد السيف إلاّ هوت بحد السيف . ذاك لأن الإنسانية ما كانت يوماً من الأيام مجموعةً سياسيةً أو اقتصاديّة أو حربيّة لا غير . بل كانت – وما برحت – ذريّة إلهيّة في طريقها إلى مصدرها الإلهي . وطريقها طويل وشائك ومتعرّج . وفي جملة أشواكه وتعاريجه حدود السياسة وسدود الاقتصاد وويلات الحرب الناتجة حتماً عن تلك وهذه . فهي ، وإن تقيّدت في سيرها بحدود وسدود ، فلتجتازها إلى حدود وسدود أبعد فأبعد ، وأوسع فأوسع إلى أن تصبح آفاق الزمان آفاقها ، ومدى اللاّنهاية مداها .

يكاد من يسمع في هذه الأيام أصوات البشريّة المبلبلة وقد طغت عليها أصوات السياسيين والاقتصاديّين ورجال الحرب يجزم بأن تلك الذريّة الإلهيّة قد رهنت ميراثها الروحي لإبليس لقاء دريهمات برّاقة خدّاعة زائفة . فهي اليوم أحوج ما تكون إلى من يستفكّ ميراثها ويردّه إليها صافياً ، كاملاً ، وطليقاً من كل قيد وشرط .

أما ميراثها فالإيمان بالله الذي لا حياة إلاّ منه ، ولا وجود إلاّ فيه ، ولا حرّيّة إلاّ في محبته ، ولا عدل إلاّ في نظامه ، ولا قدرة إلاّ في معرفته . والإيمان بالله لا يقوم إلاّ على الإيمان بالإنسان . وأما إبليسها فوَهم يبثه رجال الحلف الثلاثي في أفكارها بأن لا وجود لها إلاّ ضمن الحدود الجنسيّة والإقليميّة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا راحة إلاّ وراء السدود الاقتصاديّة والاجتماعيّة ، ولا حق إلاّ للقوّة ، ولا قوّة إلاّ للمدفع . وأن هناك « مدنيّة » لا حياة إلاّ منها ، ولا سعادة إلاّ بها ، ولا حريّة إلاّ في نظمها ، ولا عدل إلاّ في ميزانها . ولو أنها عرفت من الحريّة أكثر من اسمها ، ومن العدل أكثر من حروفه لما كانت تتخبط في دياجير المحن والقلاقل كما نراها اليوم . هي المدنيّة التي قُلت فيها قبل اليوم إن قلبها في بطنها ، وفكرها في جيبها . فإن جاع بطنها جاع قلبها ، وإن أقفر منها الجيب أقفر منها الفكر . وما الحق والعدل والحريّة والإخاء والمساواة سوى كلمات على شفتيها . أمّا معانيها ففي بطنها وفي جيبها .

وأمّا الدريهمات البرّاقة فكلمات مطليّة بالسكّر ، محشوّة بالحنظل : استقلال . حريّة . ديمقراطيّة . وطنيّة . مجد شرف . مكانة في الشمس . وما إليها من الكلمات التي تغوي ولا ترضي .

إن قلباً مؤمناً لقلبٌ عادل أبداً . العادل لا يظلم . والمظلوم لا يعدل . والعالم اليوم مظلوم وظالم . ولن يعرف العدل حتى يعرف الإيمان .

إن فكراً مؤمناً لفكرٌ يستحيل على العبوديّة أن تبني فيه أعشاشاً . الحر لا يَستعبِد والعبد لا يحرّر . والعالم اليوم مستعبِد ومستعبَد . ولن تكون له الحريّة حتى يكون له الإيمان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن روحاً مؤمناً لروحٌ غنيّ وعزيز . الغني لا يستجدي . والفقير لا يجدي . والعالم اليوم يستجدي ولا يجدي . وسيبقى فقيراً وخسيساً إلى أن يتذوق غنى الإيمان وعزّة الاعتصام به .

ليت لكم أن تصغوا إلى العالم بآذان ما شغلتها جلبة السياسيين والاقتصاديّين ورجال الحرب عن كل ما في العالم . إذن لسمعتم قلب العالم ينبض بأشواق لافحة إلى طعام وشراب غير الخبز والماء ، وإلى سلم غير سلم المؤتمرات والمعاهدات ، وإلى طمأنينة غير التي يهدر بها المدفع وتذود عنها الدبّابة . إنّه ليشتاق الإيمان الحي وما فيه من غذاء وسلم وطمأنينة .

أجل ! ذلك ما يصبو إليه العالم : الإيمان ! وهو يصبو إليه بكل قلبه ، وكل فكره ، وكل روحه . وذلك ما يطلبه بصوت واحد إن هو ضاع في الآذان المحشوّة بثرثرة الثرثارين فهو جليّ وقويّ في الآذان التي تعرف كيف تصغي إلى ما في أعماق البشريّة لا إلى زبد على سطحها .

ومَن ذا سيقود العالم إلى إيمانه الضائع ؟

إني أسائل نفسي عن هذا الشرق الذي كان منبع الإيمان — أين أُذنه اليوم ، وماذا يسمع ، وماذا يقول ، وأين صوته في صوت العالم ؟ ولو صدّقتُ عيني لا غير لقلت إنه خشبة لا سفينة ، تتقاذفها شتّى التيارات العالميّة ، ولن يكون لها من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شأن في خضمّ الأهواء المسيطرة اليوم أكثر ممّا يكون الخشبة في عرض اليمّ. ولو صدّقت ما يقوله هذا الشرق بلسان زعمائه والذين يزعمون أنهم زعماؤه لخجلت به وبكيت عليه .

إلا أن في قرارة نفسي إيماناً وطيداً بأن الشرق ما أضاع إيمانه ، وأن جراثيم إيمانه ما تزال حيّة في تربة روحه رغم جميع ما تسرب إلى تلك التربة من فساد ، وأنها لا يمضي طويل زمان حتى تنبت فتورق وتزهر وتثمر من جديد . وسيكون لثمرها طعم ما كان له من قبل . وسيأكل الناس منه ويفرحون .

لقد سئمت القافلة البشريّة أصوات حداة ما برحوا يقودونها من حفرة إلى حفرة ، ومن مأزق إلى مأزق . وحاجتها اليوم إلى حداة أنبياء يسيرون بها لا على صوت المدفع بل على صوت الحق ، وفي طريق المحبة لا في مهاوي الضغائن ، وعلى نور وجه الله لا على بريق وجه الفلس . أفليس هذا الشرق بسامع ما نقول ؟

لست أخجل بالشرق يأكل خبزه على صينيّة ضفرتها يده من سنابل أنبتتها تربته . وأخجل به يحتسي الهوان بملاعق الجشعاء على موائد الجشعاء .

لست أخجل بالشرق فارغ الجيب ضامر البطن . وأخجل به فارغ القلب ضامر الإيمان .

لست أخجل بالشرق لا يسبق الغرب إلى محق الناس والبهائم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآمنين بقذائف جهنميّة يمطرهم إيّاها من الجوّ . وأخجل به يخجل بتقصيره عن الغرب في ذلك المضمار .

لست أخجل بالشرق هزازاً ليست له قوّة الغراب . وأخجل به هزازاً يتمنى لو كان غراباً .

لست أخجل بالشرق لا جيوش له ولا أساطيل . وأخجل به يحسب القوّة في الجيوش ، والمجد في الأساطيل ، والحق في القوّة .

ما كان أضعف موسى في حضرة فرعون . لكن فرعون راح ، ومعه جيوشه ومركباته . أمّا نور موسى فما يزال يشعّ من أعالي طور سينا . ذاك لأن إيمان موسى بنفسه وبيهوه كان أقوى من جيوش فرعون .

ما كان أضعف ابن مريم إزاء بيلاطس ودولة بيلاطس . لكن بيلاطس باد ، ودولته تلاشت كغيمة في السماء . أمّا ابن مريم فحيٌّ ، ودولته ما دالت ولن تدول . ذاك لأن إيمان ابن مريم بنفسه وبأبيه الذي في السموات كان أقوى من رومة وجحافل رومة .

ما كان أضعف يتيم قريش تجاه سادة قريش . وها هي رسالته ما تزال ماشية في الأرض . فأين قريش وسادة قريش ؟ ذاك لأن إيمان يتيم قريش بنفسه وبربّه الرحمن الرحيم كان أقوى من سلطان كل قريش .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إني أضن بهذا الشرق يستجدي الحياة والحريّة من دولة أو من إنسان . وشآبيب الحريّة والحياة والطهر والجمال تتدفّق عليه في كل لحظة من يد الله السخيّة .

إني أضن بهذا الشرق يفتح قلبه للذل ويوصده دون هيبة جباله وبحاره وصحاريه .

وإني أضن بهذا الشرق يضيع إيمانه في تيّار مدنيّة لا إيمان لها . وليس يعزّيني عن قلّة إيمانه كثرة معابده وشيوخه وكهنّانه . فالدين كنز في القلب لا تسبيحة على الشفاه ، أو تأدية فرض محتوم في مكان معلوم . إنّه لشهادة صامتة في أعمق أعماق الروح بأن مصدر الحياة واحد ومرجعها واحد . من أدّى مثل هذه الشهادة كان بعيداً عن كل تفرقة ونزاع . فلا وضيع عنده ولا رفيع . ولا سيّد ومسود . ولا غريب وقريب . بل الكل وحدة متماسكة بسحر المحبّة ، مسربلة بنور الحق ، مضمّخة بعطر الجمال .

وأنا أود من صميم قلبي لهذا الشرق أن يؤدي مثل هذه الشهادة . وأن أراه — وهو أول من أدرك قوّة الإيمان — يحمل من جديد رسالة الإيمان إلى العالم . وأن يسمع العالم في صوته صوت الإنسانيّة المعذّبة بأصوات « مهندسيها » والمنكوبة بجلبة « بنّائيها » — صوت أشواقها الأبديّة إلى الانفلات من الحدود ، والانعتاق من السدود ، والحظوة بجمال الحريّة التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا تَستعبِد ، والعدل الذي لا يَظلم .

قد يكون من المجد لهذا الشرق أن يصبح دولة مترامية الأطراف ، مهيبة الجانب ، نافذة الكلمة . لكنه مجد باطل . أمّا المجد الذي أتمناه لهذا الشرق العَبِق بالسلام فهو أن تطفح قلوب بنيه بزيت السلام وتفيض على العالم الصاخب من حوله .

والعظمة التي أترجّاها لهذا الشرق الجميل هي أن يشعّ منه جمال الإيمان الصحيح على العالم الهارب سراعاً من رب الحياة إلى شياطين الموت .

والمأثرة التي أتوخّاها لهذا الشرق الحصين هي أن يصبح حصناً للدين الذي يبتدىء بالله وينتهي بالله ــ دين الأخوّة الصادقة والأبوّة المتفانية . دين المحبّة الشاملة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجاز البقاء

بين المهد واللحد فسحة من الزمان ندعوها العمر . وهي لو قيست بمدى الآزال والآباد لبدت لمحة لا غير . ولكن يا لها من لمحة حشرت فيها الحياة كلّ الزمان وكل المكان ، ولوّنتها بجميع ألوان المشاعر والأفكار : من الغبطة التي لا توصف إلى الألم الذي لا يطاق . ومن المعرفة المطمئنّة الصامتة إلى الجهل المذعور المهذار . وقد جعلتها الحياة حركة لا تعرف السكون ، فكأنها الدولاب ما ينفكّ يدور على محور واحد سرمديّ . أمّا المحور فالقدرة المبدعة أو الله . وأمّا المحرك فالجوع والعطش ، والاثنان توأمان لا ينفصلان .

يولد الطفل وبه جوع صارخ إلى ثدي أُمّه . ثم يشبُّ ويشيب ويموت وبه جوع أخرس إلى ثدي البقاء . فالجوع هو الفاتحة ، والجوع هو الخاتمة . وبين الفاتحة والخاتمة جوع ينتهي إلى جوع ، وعطش يفضي إلى عطش ؛ إذ إن لنا في كل لحظة من وجودنا أُموراً تجذبنا وأُموراً تدفعنا ؛ أُموراً نرغب فيها وأُخرى نرغب عنها . حتى كأنّ ثواني العمر مهاميز تهمزنا أبداً إلى حيث ندري ولا ندري . فلا نستريح إلاّ لنتعب ، ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشبع إلاّ لنجوع ، ولا نرتوي إلاّ لنعطش .

هكذا تتوالد الأفكار من الأفكار بغير انقطاع ؛ وبغير انقطاع تتدافع تدافع قطرات الماء في الجدول الجاري . وهكذا تتناسل الشهوات من الشهوات وتتزاحم في القلب تزاحم الشرار من النار . وهكذا تتسابق كريّات الدم في العروق تسابق النحل في خليّته إلى العمل . فالفكر في جوع دائم ، والقلب في عطش أبدي ، والدم في دأب مستمر لسد حاجات الفكر والقلب والجسد .

هو الجوع وتوأمه العطش يدفعان بنا أبداً إلى السعي والحركة . ولكنهما أصناف ومراتب . أدناها الجوع إلى الخبز والعطش إلى الماء ، وأسماها الجوع إلى المعرفة التي لا جوع بعدها . والعطش إلى الحريّة التي ينتهي عندها كل عطش . وبين هاتين المرتبتين ضروب من الجوع والعطش لا تقع تحت حصر ، كالجوع إلى اللذّات الجسديّة بأنواعها ، وكالعطش إلى الجاه والسؤدد والجمال والمعرفة والسعادة وسواها . وهذه الأنواع من الجوع الذي لا يشبع ، والعطش الذي لا يرتوي هي التي أوحت التشاؤم إلى المتشائمين ، إذ بدت لهم الحياة حلقة مفرغة من السعي الذي لا ينتهي إلى هدف ثابت ، والتعب الذي لا تعقبه راحة دائمة . وهي التي حملت ضرير المعرّة على قول بيته المشهور :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« تعبٌ كلّها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب في ازدياد »

ذاك لأن المعرّي وزملاءه في التشاؤم جعلوا للحياة بداية ونهاية ، ثم رأوها تبتدىء بالجوع وتنتهي بالجوع فقالوا : « وأي خير في حياة أولها جوع وآخرها جوع ؟ » وهو قول لا مردّ عليه إلاّ إذا انعتق الخيال من ربقة البدايات والنهايات فأبصر في الولادة والموت مرحلتين من مراحل عمر طوله طول الزمان ؛ وإلاّ إذا أفلت الفكر من قيود اللحم والدم فأدرك قصد الحياة من جعلها الجوع مهماز يهمز الأحياء على الدأب والتفتيش والتعلّق بالبقاء .

لو أن القدرة المبدعة أوجدت الجوع والعطش من غير أن توجد لهما الغذاء والري لحق لنا أن ننعتها بأشنع نعوت الظلم والقسوة والاستبداد . فهل أفظع من أن تخلق حيواناً وتجهّزه بجهاز خاص لأكل العشب وشرب الماء من غير أن تخلق له عشباً وماء ؟ وإذ ذاك فالفكر بالحياة أولى من الإيمان بها .

ولكن الحكمة الأزليّة أعدل من أن تظلم ، وأحنّ من أن تقسو ، وأنبل من أن تستبد . فهي ما جعلت حيّاً من الأحياء يجوع أو يعطش إلاّ خلقت له ما يسدّ به جوعه ويطفىء عطشه . فالأرض والسماء بما فيهما ومن فيهما موائد مثقلة بأصناف الغذاء والري لكل ما في السماء وعلى الأرض . والكائنات من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منظورها ومستورها تعيش ويغتذي بعضها ببعض ؛ فكأنها خزانات يملأ بعضها بعضاً بغير انقطاع ، فلا هي تفيض يوماً ولا هي تفرغ لحظة . إذ ليس في مستطاع أي مخلوق أن يأخذ من ماديّات الكون أو معنويّاته إلاّ على قدر ما يعطي ، سواء في ذلك الجماد والنبات ، والحيوان والإنسان . ونحن لو كانت لنا مقاييس دقيقة إلى أقصى درجات الدقة لأدركنا أيّ عدل لا يوصف هو عدل السماء والأرض .

فما دام لكل جوع غذاء ولكل عطش ري ؛ أفليس في ذلك دليل على أن الجوع الذي ينتهي بنا إلى حافة القبر لا بدّ له، مهما يكن نوعه ، من غذاء عبر حافة القبر ؟

ومن ذا يستطيع الجزم بأن حافة القبر هي الحد الفاصل بين البقاء والفناء ، وأن الموت هو نهاية الحياة ؟ بل من ذا يستطيع القول بأن القدرة التي أوجدتنا قد سلطت علينا الجوع والعطش لتجعلنا عبيداً أذلاء لهما ، ولتلهو بآلامنا وأحزاننا لا لتسلّطنا في النهاية عليهما ولتمحو آلامنا وأحزاننا ؟

من منّا لم يقل يوماً في سرّه أو في علانيته : « ليتنا نغلب الموت وليتنا نحيا حياة كلّها سلام ، وكلّها عدل ، وكلّها جمال وطمأنينة ، وليتنا نعرف كل ما نجهل » ؟

إن في قولنا ذلك لدليلاً على جوعنا إلى البقاء وإلى السلام والعدل والجمال والطمأنينة وإلى المعرفة الكاملة . وإن في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوعنا ذاك لدليلاً على أن الغذاء موفور لدينا . فما علينا إلاّ أن نفتش عنه بكل قوانا . أمّا أن الوصول إليه لا يتم لنا في خلال عمر واحد ففي ذلك وحده كفيل بأن العمر ليس الحياة ، بل مرحلة من مراحل الحياة ، وأن التفتيش لن ينتهي إلاّ بالوصول إلى المعرفة — معرفة الله . ومعرفة الله هي الخبز والشراب اللذان يفنى فيهما كل جوع وعطش . وهي التربة التي لا تنبت فيها بذور الحزن ولا تتأصّل جذور الألم .

تلك هي مشيئة الله منّا — وما أحكمها مشيئة . أن نبدأ الحياة بالجوع إلى الخبز وأن نختمها بالجوع إلى معرفة الحق الذي يحرّرنا من كل جوع . وتلك هي حكمة الحياة فينا — وما أعدلها حكمة . أن تجعل من الجوع مهمازاً يدفع بنا أبداً إلى التفتيش عن الغذاء الذي لا جوع بعده . وأن تجعل كل ما في الكون مائدة لنا وتجعلنا موائد لكل ما في الكون . ثم أن تجعلنا معلّمين لكل ما في الكون وتجعل كل ما في الكون معلّماً لنا . أما أننا ضيوف ومضيفون ، وتلاميذ ومعلّمون في آن معاً فما ذاك من المجاز في شيء .

من منّا إذا عنّ له يوماً أن يحلّل نفسه نظير ما يحلّل الكيميائي مركّباً كيميائياً تمكّن من أن يردّ أعصابه وعظامه ولحمه ودمه إلى مصادرها ؟ أليست أجسادنا تتكوّن من جسد الكون وتتغذّى به لتعود فتساعد في تكوينه وتغذيته ؟ فمثلما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نجوع إلى أشياء وأشياء تجوع إلينا أشياء وأشياء . فنحن أبداً جائعون ومجيعون ، وآكلون ومأكولون . فهنيئاً لمن كان طعاماً صالحاً للغير كيما يكون الغير طعاماً صالحاً له . والويل لمن كان للغير سمّاً زعافاً ، فهو من حيث لا يدري ، يسمّم طعامه بيده .

ثم من منّا يستطيع أن يرد أخلاقه وأفكاره ونزعاته وشهواته إلى مصادرها ؟ أنعرف أيّ أثر في كياننا لأغاريد العصافير وصرير الجنادب وهدير العواصف ؟ أم نعرف ماذا قرأنا ونقرأ في صحيفة البحر والصحراء ، وفي جبهة الجلمود والعشبة الخضراء ؟ أم نذكر كل ما تذيعه لنا الشمس والقمر والنجوم وما تهمسه في آذاننا سكينة الليل ؟ أم ندرك ما رسب في أعماقنا من قراءة هذا الكتاب أو ذاك ؟ لكَم نخاطب الأموات ويخاطبوننا ولكَم نصادق ونعادي من الأحياء . أفبعد هذا يقول قائل إنّ معلّميه فلان وفلان لا غير ، وإن مدرسته هي مدرسة كيت وكيت ؟

إنما الكون بكل ما فيه مدرسة الإنسان . وإنما كلّ ما في الكون معلم للإنسان . وإنما العمر من أوله إلى آخره دراسة متواصلة . والجوع هو الحافز الأبدي للدرس والاستطلاع . فماذا عسى الناس يبتغون من مدرستهم ومعلّميهم ؟ أيبتغون شهادات تخوّلهم تبذير خيرات الأرض كما يشاؤون ، بينا جارهم ينام على الطوى ويفترش التراب ويلتحف الأسمال ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أم يبتغون أن تكون لهم القصور والخدم والرتب الرفيعة والألقاب الطنّانة ، وأن يسجد لهم أذلاّء النفوس ، ويمجدهم صغار القلوب ، ويستعطفهم سخفاء العقول ؛ وأن يبقوا ، مع ذلك ، نهباً لأخس أصناف الجوع والعطش ؟ إنهم لا شك خاسرون .

ولو أنهم أحسنوا الدراسة لفقهوا أنها وإن ابتدأت بالجوع إلى الخبز ، والعطش إلى الماء ، ثم تدرجت بهم إلى كلّ أصناف الجوع والعطش ، فغايتها الوصول بهم إلى الطعام الذي إن شبعوا منه مرة لبثوا شباعاً إلى الأبد ، وإلى الشراب الذي إن ارتووا منه مرّة ما عطشوا من بعدها إلى الأبد .

أجل ! مدرسة هو الكون . وما الأعمار نطويها بين المهد واللحد غير صفوف فيها . أمّا الحافز الأكبر للدرس فالجوع . وأمّا الغاية من الدرس فأن نتعلّم كيف نضيف ونضاف ، وكيف نعلّم ونتعلّم ، وكيف نخلص من الجوع الذي لا يشبع إلى الشبع الذي لا يجوع .

فنحن إذ نكون ضيوفاً على الكون علينا أن نتقيّد بحشمة الضيف ، فلا نتناول ممّا على المائدة فوق حاجتنا ، ولا نتلف شيئاً منه ، ولا نسرق ، ولا نخبيء في جيوبنا ، ولا نسابق غيرنا من الضيوف إلى الطعام الأشهى والشراب الأمرأ ، ولا نتنازع على هذا الصنف أو ذاك . وإذ نكون مضيفين علينا أن نحسن الضيافة . فنبذل لضيوفنا بسخاء من أجود ما عندنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا نتبجّح ، ولا نمنّ ، ولا ندس السمّ في الدسم ، ولا نقدّم للواحد أفضل ممّا نقدّم للآخر أو أقل منه .

ونحن إذ نكون تلاميذ لا يليق بنا أن نستخفّ بمعلّمينا ، سواء أكان معلمنا رتيلاء أم كوكباً في الفضاء . وإذ نكون معلمين يجدر بنا أن نصرف من عنايتنا ومحبتنا للتلميذ الفقير والبليد نظير ما نصرفه للغني والنبيه . سواء أكان تلميذنا حمّالاً في السوق أم عظيماً من عظماء الدولة .

ذلك هو العدل الذي نبتغيه من الغير ، والذي يبتغيه الغير منّا . ثم ذلك هو الطريق المؤدّي بنا من المجاعات التي لا نهاية لها إلى الجوع الأعظم والأخير — الجوع المقدس إلى خبز المعرفة الكاملة — معرفة الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحرب وسنّ الرشد

انتهت الحرب وكأنها لم تنته . فهي ما تزال على كل شفة ولسان . والناس ما يبرحون يتساءلون : لماذا تنشب الحروب ؟ وهل الحرب ضربة لازب في حياة البشرية ؟

فمن قائل إن الحروب تثيرها الفوارق الجنسيّة والدينيّة . ومن قائل إن شهوة السلطان والمجد هي الدافع الأقوى والأهم . ومنهم من يحصر الأسباب كلّها في العوامل الاقتصادية لا غير . وهناك من لا يحاول ردّ الحروب إلى سبب واحد أو مجموعة من الأسباب ، بل يقول إن الحرب من طبيعة الإنسان مثلما هو الأكل والشرب والتنفس والتناسل . وإنها ، فوق ذلك ، قانون من قوانين الطبيعة لا مناص للإنسان من الامتثال له مهما تسامت مداركه ومشاعره . فها هي الأجرام السماويّة لا تنفكّ في تدافع وتجاذب . وها هي نباتات الأرض ، وأسماك البحار ، ومجنّحات الجو ، وحشرات التراب ، وضواري الغابات ، وباقي الحيوانات — ومنها الإنسان — في نزاع أبدي من أجل البقاء . فالإنسان ، من هذا القبيل ، لا يخرج في نظر أصحاب هذا المذهب عن كونه حيواناً كسائر الحيوان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمّا جوابي فهو أن الحرب ستلازم الإنسانيّة ما دامت الإنسانيّة بمجموعها – لا بأنبيائها وأوليائها – دون سن الرشد. وهو جواب يحتاج ، من غير شك ، إلى التبسط والتفسير .

من البديهي أن سنّ الرشد للإنسانية التي لا يقاس عمرها بعقود العقود ولا بأجيال الأجيال هي غيرها للإنسان الواحد الذي لا يتعدّى معدّل عمره الأربعين – أو الخمسين – من السنين .

ما هي بالمصادفة العمياء أن يتفق الناس من أقدم الأزمان وفي كلّ مكان على مرحلة محدودة من العمر إذا ما اجتازها الإنسان قالوا إنّه بلغ سنّ الرشد . وما دام دونها دام في عرفهم قاصراً . بل إن في ذلك حكمة زمنية فرضتها تجارب الحياة فرضاً . فلا مناص منها على الإطلاق في تصريف شؤون المعيشة . ذاك لأن حياة البشرية – حياة الإنسان تجاه غيره من الناس – تنطوي على الكثير من الواجبات والحقوق التي خلقتها الضرورة . فالرشد ، من هذا القبيل ، إنّما هو المقدرة على تفهُّم تلك الواجبات والحقوق والاضطلاع بها . والقصور هو العجز عن ذلك . فلا الرشد رشد مطلق . ولا القصور قصور مطلق . بل هما رشد وقصور بالنسبة إلى هدف قريب المنال هو القيام بأعباء المعيشة في خلال فترة قصيرة من الزمن ندعوها العمر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك هو الاصطلاح الشائع بين الناس بشأن سن الرشد . وهو اصطلاح ، كما ترون ، حكيم . أفما يحق لنا بالمقارنة ما بين عمر الإنسان الواحد وعمر الإنسانيّة الشاملة ، وبين أهدافه وأهدافها ، أن نخلص ولو بالتقريب ، إلى الحكم في ما إذا كانت الإنسانيّة قد بلغت سنّ رشدها أو لم تبلغها بعد ؟

قلت إن سنّ الرشد للفرد قد حدّدتها خبرة الناس بالنسبة إلى أهداف المعيشة المحدودة. وسن الرشد هذه تكاد تبلغ نصف عمر الفرد إذا ما اعتبرنا معدّل العمر أربعين عاماً أو أكثر بقليل . فكيف لنا أن نعرف سنّ رشد الإنسانيّة إلا إذا عرفنا عمرها ؟ وكيف لنا أن نعرف عمرها إلاّ إذا عرفنا هدفها — أو أهدافها — من وجودها ؟ فما دام للعمر هدف ، كان لا بدّ للعمر أن يطول حتّى يدرك ذلك الهدف . فهل للإنسانيّة من هدف ؟ وما هو ؟

لست أجهل أن في الناس من ينفي وجود أيّة غاية لأي شيء . فالكون في نظرهم ليس أكثر من قوى طائشة تتفاعل على غير هدى ولغير ما مقصد من المقاصد . والعجب من أمر هؤلاء أن لهم في كل ساعة ، بل في كل لحظة ، من حياتهم غاية يسعون إليها ، وأنهم مع ذلك ، لا يرون غاية لوجودهم أو لوجود شيء في الكون . ثم إنهم ، كيفما انقلبوا ، أبصروا كائنات لا تحصى يجدّ كلّ منها في سبيل الوصول إلى حاجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الحاجات أو هدف من الأهداف . سواء في ذلك النملة والجمل والحرباء والإنسان .

إن يكن عالمنا عالم غايات في جزئياته ، أفيصح أن يكون عالماً لا غائيّاً في كليّاته ؟

إما أن يكون عالمنا عالماً موزوناً يتمشّى على سنن محدودة لغاية محدودة ، وإذ ذاك تحتّم علينا أن نعرف سننه وغاياته لنسير معه لا ضده ، فنكمل باكتماله وندرك غايتنا في غايته . وإمّا أن يكون طائشاً لا تربطه سنّة ولا تحدوه غاية . وإذ ذاك فأي بأس علينا لو كنّا طائشين في عالم طائش ، فعشنا وما درينا لماذا نعيش ، ومتنا جاهلين لماذا نموت ؛ وحاربنا وسالمنا وتناسلنا من غير أن نعرف لماذا نحارب ونسالم ونتناسل ؟ وأي معنى لكل ما نعمل ونقول ، ولذلك الصراع الهائل الذي ما يفتأ الإنسان يخوض غماره ، ولتلك الآلام المبرحة التي ما تنفك تشويه في صراعه ؟

لا . لا . إن للكون غاية إذا نحن جهلناها فليس يجهلها الكون . وإن للإنسانيّة هدفاً تدلّكم عليه أشواق الإنسانيّة مثلما يدلّكم الدخان على النار ، والنور على الشمس ، وظلّ الشجرة على الشجرة .

أمن الممكن أن نشتاق شيئاً لا وجود له ؟ إن في الشوق وحده لدليلاً قاطعاً على وجود ما نشتاقه . فنحن ما كنا لنجوع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لولا وجود ما يؤكل ولولا مقدرة فينا على أكله ؛ ولا لنعطش لولا وجود ما يروي ؛ ولا لنحب لولا وجود ما يُحَبّ ؛ ولا لنعرف لولا وجود ما يُعرَف . ونحن ما كنّا لنحسّ شوقاً نهّاشاً إلى معرفة كلّ ما في الكون لولا قدرة كامنة فينا على تلك المعرفة .

كذلك شوقنا إلى الحرية المثلى وهي التسلّط على كلّ ما فينا وفي الأكوان حوالينا من قوى نغالبها وما تزال تغلبنا . ولكن في عدم تسليمنا لها ، وفي ثباتنا الرائع في الميدان دليلاً ناصعاً على وجود القوة الكافية فينا للتغلّب عليها في النهاية .

وإذاً فهدف الإنسانية من وجودها هو معرفة كلّ شيء والقدرة على كل شيء . فأين إنسانية اليوم من ذلك الهدف ؟

ليس من يعرف طول الشقة من الزمان التي قطعتها البشرية حتى اليوم . والذي نعرفه هو أن البشرية قد تعبت في خلالها كثيراً ، وتألمت كثيراً ، وفكّرت كثيراً . فاكتشفت أشياء واخترعت أشياء ، وتمكنت من تنظيم ما عرفته واكتشفته واخترعته تنظيماً تغالي به كلّ المغالاة ، وتحرص عليه حرصها على كنز ثمين ، وتدعو ذلك الكنز « الحضارة » ولكنها ، بالنسبة إلى هدفها الأبعد والأسمى ، ما تزال في أول الطريق . فالذي عرفته حتى الآن ليس سوى قطرة من بحرٍ ما لا تعرفه . والذي تتحكم فيه هو حفنة من طود من القوى التي ما تبرح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متحكمة فيها . فما أبعدها بعدُ عن سنّ الرشد .

إنّ أقلّ ما تفرضه سنّ الرشد على الذين يبلغونها هو معرفة ما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق تجاه أنفسهم وتجاه المجموع . ولو أن الإنسانيّة بلغت الرشد لعرفت هدفها وما يحتّمه عليها من واجبات ويعطيها من حقوق . وإذ ذاك لانصرفت إليه بكل قواها . فكانت يداً واحدة وإرادة واحدة. إلا أنها ما تزال دون سنّ الرشد بكثير . فشأنها مع نفسها ومع الأكوان من حولها شأن الأولاد الصغار يتقاتلون من أجل خرزة حمراء أو زرقاء ، ومن أجل دوّامة أو دمية ، ومن أجل حركة أو كلمة ، ثم يعودون فيتحالفون على هدم عش عصفور واقتسام الفراخ التي فيه ، أو على سرقة عنقود من كرم جارهم .

لا فرق بين حروب عصابات من الأولاد وبين حروب عصابات من الأمم إلاّ في المدى . أما الذهنية التي تتولّد منها تلك وهذه فواحدة . هي ذهنيّة المنافسات العرقية والدينيّة واللّغوية والسياسيّة ؛ ذهنيّة السلطة الجاهلة أن فوق كل سلطة سلطات ؛ ذهنية المالك لا يفقه أنّه مملوك ما يملك . هي ذهنيّة تتوهم خيرها في شرّ غيرها ، وهناءها في شقاء سواها ، وقوّتها في ضعف جارها . ولا يخطر لها ببال أنّ شر جارها وشقاءه وضعفه هي شرّها وشقاؤها وضعفها . وبالإجمال هي ذهنية الولد ما بلغ سنّ الرشد . فلا هدف له من وجوده غير إرضاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شهواته ونزعاته الفردية مهما تكن خسيسة وبعيدة عن شرف الرجولة وإباء المعرفة .

ما دامت الإنسانية دون سنّ الرشد دامت في غفلة عن هدفها الأسمى ، تتنازعها غايات مبلبلة ، مشوشة ، كلما بلغت حد الفوران تأجّجت من جرّائها نيران الحروب. ثم تهمد فترة من الزمن فيكون سلم . ولكنه سلم مدجج بالسلاح . وللسلم سلاح غير المدفع والدبابة والغواصة . هو سلاح النكايات والسعايات والحقد والحسد والنميمة والبغض . وما أفظعه وأشده فتكاً من سلاح ! فكأن الناس مقضي عليهم بأن يمزقوا الغشاوات التي على عيونهم بأيديهم ، وأن يشتروا المعرفة بالألم ، وألا يبصروا نور الرشد إلاّ بعد التخبط الطويل في دياجير القصور . ولا عجب ، فالفرخ لا يستطيع الخروج من بيضته إلاّ بكسرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلوبُ الوَالدَات

ماتت التي ولدتني ، والموت يطوي الكلّ — حتّى الوالدات .

ماتت وفي لحمي وعظمي ودمي بقايا حيّة من لحمها ومن عظمها ومن دمها ؛ وفي القلب من أنباضها أنباض ، وفي الصّدر من أنفاسها أنفاس . أما كُوّنتُ جسماً حيّاً في جسمها ومن جسمها الحيّ ؟ فكأنّ بعضي مات بموتها . وكأنّ بعضها ما يزال حيّاً في حياتي . فكلانا ميت ، وكلانا حيّ .

ولم أكُ جاهلاً أن التي ولدتني ستموت يوماً ما . فما هالني ، وأنا بجانب سريرها ، أن أُحسّ يدها تتثلّج وتيبس في يدي — فلا نبض ولا حرارة . ولا هالني أن أخاطبها فلا تجيب . أو أنني سأعيش ما تبقّى لي من العيش فلا أسمعها تناديني « يا ابني » ولا أُبصرها ترسل خلسة نظراتها الملهوفة إلى وجهي لتعرف أفي عافية أنا وفي سلام ، ولا آكل الزاد وقد باركته ، ولو باللمس ، يداها اللّتان يعلم الله وحده كم أعدّتا من الزاد طيلة أمومتها الطويلة .

لا . ما هالني أن أرى التي ولدتني هيكلاً مهجوراً ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأمس كان يعجّ بالعبادة والعابدين . ومذبحاً قفراً ، وكان حتّى سويعات قليلات عامراً بالنار والنور ، وبالصلوات والقرابين . ولقد هالني أن أتمثّل جميع الوالدات في والدتي ، ومن ثم أن أفكّر في تلك العضلة البيضويّة الشكل ، الحمراء اللون ، التي ندعوها القلب — ما أسعدها في صدور الوالدات وأشقاها ، وما أبسطها وأدهاها ، وما أشحّها وأسخاها ، وما أصلبها وأطراها ، وما أضعفها وأقواها . . .

كل القلوب عجيب ورائع وغريب . ولكن أعجبها وأروعها وأغربها من غير شك قلوب الوالدات . فما إن يزحل ولد عن قلب والدة حتّى تصبح الوالدة ولها قلبان وجسدان وحياتان . وتتعدّد المواليد فإذا الوالدة ذات قلوب وأجساد وحيوات عدّة . فكأنها شجرة التين الهندي التي ما إن يتدلّى غصن من أغصانها إلى الأرض فيلمس التراب حتّى يتّخذ له جذوراً وينمو شجرة مستقلة في الظاهر بساقها وفروعها وأغصانها عن ساق أمّها وفروعها وأغصانها . أمّا في الواقع فمتصلة بها أوثق الاتصال .

أما تسمعون الوالدات يتحبّبن إلى أولادهن بمثل هذه الكلمات : « يا قلبي . ويا روحي . ويا عيني . ويا عظامي » وما شاكلها ؟ ما ذاك من المجاز في شيء . إن هو إلاّ الحقيقة العارية عن أي زخرف ومبالغة . فقلب الولد قلب الوالدة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعينه عينها ، وروحه روحها ، وعظامه عظامها . ومن هنا كانت لهفتها العظيمة عليه – تلك اللهفة التي لا يندر أن تبلغ حد نكران الذات وبذلها بسخاء لا يقيم وزناً لألم مهما اشتدّ . حتى ولا للموت .

فما مسّ ولداً ضرّ إلاّ مسّ والدته أضعافه . ولا سالت من عروقه قطرة دم إلاّ تفجّرت لها من قلبها قطرات . ولا اكدّ في عينه نهار إلا أظلمت في عينها شموس . ولا غاب عن أبصارها إلا وزّعت نفسها حراساً يسهرون على سلامته ، وصلوات تدرأ عنه السوء وتسدّد خطاه إلى الفلاح وإلى العشّ الذي منه طار وعنه اغترب . وأمّا إذا اختاره الموت ولفّته ظلمة الرمس فما من خطيب ولا عالم ولا ساحر يستطيع أن يصف لكم ولو ميتة واحدة من الميتات التي تموتها والدة فُجعت بقلب من قلوبها .

يا ليته كان لي ولكم أن نستنطق الأرض وكلّ ما عليها ، والسماء وكلّ ما فيها ، والهواء وكل ما انطوى عليه ، عن كلّ ما اختلجت به قلوب الوالدات منذ أول والدة حتى اليوم . إذاً لصعقنا نحن البنين بما كانت تذيعه لنا الأكوان عن عقوقنا وتفاني والداتنا من أجلنا . وعن بقائنا فيهن وفنائهن فينا . فما من هلال أهلّ ، ولا نجم أطلّ ، ولا شمس بزغت ، ولا نسمة هبّت ، ولا سحابة عدت إلاّ توجّهت إليها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلاف القلوب من آلاف الوالدات راجية أن تحمل لأبنائهنّ العافية والسعد والبركات ، وأن تدرأ عنهم كلّ سوء من أيّ نوع كان . أمّا ظلمات اللّيالي الحالكات ـ وأمّا وسادات الوالدات وأفرشتهنّ فمن ذا يعرف بعض ما في طيّاتها من هناء وأرق ، وطمأنينة وقلق ، ودموع حمراء ، ونفثات حرّاء ، وآمال ملتاعة ، ولوعات مؤمّلة ، وموت بطيء ، وشهدٍ فيه علقم ؟

أتسمعون بحرب ما فتقولون : هي حرب شنها الرجال على الرجال فلا تغتال غير الرجال ؟ إنها لحرب شنّها البنون على الوالدات وأول من تغتاله الوالدات . فقلوبهنّ أبداً في ساحات القتال : هنا تمزّقها الشظايا ، وهناك تشويها النيران ، وهنالك تسحنها الدواليب ، أو تلفحها السمائم ، أو تتناتشها الأسماك ، أو يفتّتها الجليد . هي في المعتقلات مع المعتقلين ، وفي المستشفيات مع المتألمين ، وفي الجوّ وفي البحر تغالب الأنواء والأمواج مع الطيّارين والبحّارين .

وتستريح رحى الحرب ، فإذا بقلوب الوالدات مقابر يغسلها أبداً دمٌ سخين حزين . أو هي ملاجىء للمعتوهين ، ومآوٍ للمشوّهين ، أو شباك من خيوط العنكبوت يلف بها حنين الوالدات أولئك من أبنائهنّ الذين كُتبت لهم السلامة ـ يلفّهم بها صوناً لهم من عاديات السّنين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهف قلبي على قلوب الوالدات . ما زارها الفرح يوماً إلا وشبح الخوف من سريع ارتحاله يقنّع وجهه وينغّص عليه إقامته . أما الحزن فما دخل قلب والدة ثمّ استطال الإقامة فارتحل . فهو قد يختبيء حيناً ، أو يتدثّر بدثار من النسيان . لكنّه يعود من غير أقلّ إنذار أو تنبيه فيخرج من مخادعه ، ويلقي عنه دثاره ، ويحتلّ صدر المجلس من جديد .

لهف قلبي على الوالدات . فهنّ يعشن أعماراً عدّة في عمر واحد . وعمر واحد نحياه ولا نستطيع أن نسيّره حسبما نشاء لمحنة وأية محنة . فكيف بمن انطوى عمره على أعمار ، وليس في يده زمام ولا واحد منها ؟

ههنا مصدر شقاء الوالدات . فهنّ واهمات أبداً أنه ما دامت لحوم الأولاد وعظامهم ودماؤهم من لحومهن وعظامهن ودمائهنّ فحياتهم كذلك حياتهنّ ، وهنّ أحقّ بها وبتدبيرها حتى من الله . والواقع أن لا حياتهن منهنّ ولا حياة أولادهنّ من حياتهن . وليس بين تلك وهذه صلة العلة بالمعلول ، أو السبب بالنتيجة ، وإن ربطتهما شركة وثيقة في الاثنين . إلا أن الوهم كان ، وما برح ، ولن يبرح أجمل شكلاً في عيون الوالدات وأشهى طعماً في أفواههنّ من حقيقة عارية .

والحقيقة العارية هي أن الوالدات لسن الينابيع التي منها تتفجّر الحياة ، ولكنّهنّ الآنية المقدسة المعدة لاقتبال الحياة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحتضانها . هنّ القناة تسيل فيها المياه ، ولسن المياه . وهنّ التربة تنبت فيها البذرة ، ولسن البذرة . فللولد حياته وللوالدة حياتها . والحياتان تتصلان حيث يقضي نموهما بالاتصال ، وتفترقان حيث يقضي نموهما بالافتراق ، ولكنهما ، وإن افترقتا في عالم الظواهر ، فهما على اتّصال أبدي في عالم البواطن ، حيث القدرة التي منها كلّ شيء وإليها كل شيء ، والتي ندعوها الحياة ونجهل ما هي . ولعلّ الأمومة هي الصف الأول في مدرسة متعدّدة الصفوف يفنى كل واحد منها في الذي يليه . إلى أن تبلغ الإنسانيّة الصف الأخير حيث يفنى الكل في الواحد ، ويتّسع الواحد فيشمل الكل . وللوالدات المجد في أن يكنّ من الإنسانيّة طليعتها المباركة في طريق نكران الذات : نكران ذاتٍ محدودة للوصول إلى الذات التي لا تُحَدّ .

ألا رفقاً بالوالدات حتى اللواتي يظهرن للناس ولأولادهن كما لو كنّ غير صالحات . أفما كفاهنّ صلاحاً أن تختارهن الحياة آنية صالحة للحياة ؟

إي . رأفة ، ثم رأفة بقلوب الوالدات !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدنيّة العقل ومدنيّة الخيال

في الغرب مدنيّات لا مدنيّة ، لكنّها تنضوي كلّها تحت لواء واحد هو العقل . والعقل هو المصباح الذي تسكب فيه الحواس زيوت اختباراتها . فعلى قدر ما تكون تلك الاختبارات غزيرة أو شحيحة يكون مصباح العقل نيراً أو ضئيلاً ، إلاّ أنّه — نيراً كان أم ضئيلاً — لا هداية فيه لمن يطلب الوصول إلى ضمير المحسوسات .

وفي الشرق مدنيات لا مدنيّة ، لكنها تسير كلّها خلف حادٍ واحد هو الخيال . والخيال هو الشمس التي تنير في طرفة عين ما ليس تنيره ربوات المصابيح في ربوات من السنين ، أو هو السلّم السحري الذي نرقى به من المحسوس فينا إلى غير المحسوس . والعقل درجة من درجاته .

إذا ما قلت إن مدنيّة الغرب هي مدنيّة العقل فلست أعني أنها مارقة من الخيال ، بل إن عقلها يسوق مركبة خيالها . وكذلك عندما أنعت المدنيّة الشرقية بمدنيّة الخيال لا أعني أنها طاهرة من العقل بل إن خيالها يقود عقلها .

منذ المقابلة التي جرت بين الحيّة وحواء في جنّة عدن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والخيال والعقل يتنازعان قيادة البشريّة . فقد كان من ذلك الحديث القليل الكلام ، البعيد الأصداء ، الذي دار بين أمّ الإنسانيّة وشيطانها ، أن استيقظ الإله الهاجع في حواء ، فأدركت أن سرّ الألوهيّة في المعرفة — معرفة الخير والشرّ . وبعين خيالها رأت نفسها ورفيقَها آدم إلهين مثيلين ليهوه . ولو أنها وقفت عند ذاك الحدّ لكان لها ما تخيّلته ولكانت وآدم إلهين قابضين على كلّ أسرار الوجود . غير أنها ما تنبّه الإله فيها — وهو خيالها — حتّى تنبّه معه الإنسان وهو عقلها . والعقل الذي يستمدّ كلّ نوره من الحواسّ الخارجيّة يستحيل عليه أن يسلّم بوجود شيء إلاّ إذا خبره بواسطتها . لذلك مدّ يده إلى الثمرة ليتلمّس فيها الله بيديه ويتأمّله بعينيه ويتذوّقه بلسانه ويسحنه بأسنانه ويهضمه في معدته . وإذ أن الله لا يُبصَر ولا يُلمس ولا يؤكل ولا يُهضم ، لم يحصل العقل من « اختباره » على شيء إلاّ على ذاته . لقد شاء أن يلمس الغبطة القصوى فلم يلمس سوى الوجع الأقصى ؛ وأن يبصر المعرفة الوهّاجة فلم يبصر سوى الجهل الدامس ؛ وأن يتذوّق حلاوة الخلود فلم يتذوّق إلاّ مرارة الموت . لقد شاء أن يجد الله في الإنسان فلم يجد سوى الإنسان في الله ، وأن يعرف بالفناء عدم الفناء فلم يعرف سوى الفناء .

عندما « أكل » الإنسانُ الله أكل الموتُ الإنسان ، لأنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حاول أن يحصر خياله الذي لا يُحَدّ في حظيرة عقله المحدود ، فكان كالضّفدع تنتفخ لتزدرد الثور فتنفجر ويبقى الثور حيّاً ؛ وكالشمعة تحاول أن تحصر في فتيلتها نور الشمس فتذوب وتظل الشمس شمساً . وسيبقى الإنسان ميتاً بعقله ، حيّاً بخياله إلى أن يذعن العقل للخيال .

غير أن العقل عنيد لأنّه جاهل ، وليس « يؤمن » بالخيال فينقاد إليه إلاّ متى صار الخيال « معقولاً » أي محسوساً . فما أشبهه من هذا القبيل بتلاميذ الناصري الذي كان يحدّثهم عن أبيه السماوي فيقولون له : « أرنا الآب »، وعن « ملكوت الله » فيتآمرون فيمن سيكون الوزير الأول فيه ! بل ما أشبه العقل بذلك التلميذ توما الذي أخبره رفاقه غير مرة عن قيامة معلمهم فظل يجيبهم : « إن لم أعاين أثر المسامير في يديه ... وأضع يدي في جنبه لا أؤمن » . وما أجمل ما قاله له يسوع : « لأنّك رأيتني يا توما آمنت، طوبى للذين لم يروا وآمنوا ! »

لقد بلغ من عناد العقل وخُيَلائه أنه أصبح يسخر من الخيال فيدعوه وهماً ويدعو كلّ ما ليس « ينطبق على العقل » خرافة ؛ مع أنك لو تفقدت أمنع الحصون التي يلجأ إليها العقل لوجدتها قائمة على الخيال . وأمنع حصونه هي علومه الرياضية . فأنت لو سألت أحد الرياضيّين أن يحدّد لك « الواحد » الذي تبدأ وتنتهي به كلّ الرياضيات لأجابك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأن لا وجود له إلاّ في خيالك . ولو سألت عالماً في الهندسة أن يدلّك على « النقطة » التي تتكوّن منها الخطوط ، ومن الخطوط المقاييس الثلاثة التي نعرفها حتى الآن — الطول والعرض والعمق — لأجابك بأن لا وجود لها إلاّ في خيالك .

ولئن مدّد العقل بصره بالمكروسكوبات والتلسكوبات يظل ضريراً عن كلّ ما لا تبصره غير عين الخيال . ولئن عزّز سمعه بالتليفون والراديو يبقى أطرش عاجزاً عن أن يسمع بأُذن التليفون والراديو ما ليس تسمعه إلاّ أُذن الخيال . ولئن اتخذ لرجليه أجنحة من الريح يظلّ مُقعَداً وقاصراً عن ارتياد آفاق الوجود التي يرتادها الخيال بلحظة .

يجهل العقل مسالك الخيال فينفر منه . ويعرف الخيال سبل العقل ، فيعطف عليه ويماشيه ليقوده إليه . لذلك «يتجسد» الخيال كيما يجعل من جسده عبّارة للعقل . فما المسكونة بكلّ ما فيها من محسوس سوى أجساد مختلفة للخيال الواحد ، وإن شئت فقل هي رموز ذلك الخيال ؛ وما القصد منها إلاّ مساعدة العقل على التخلّص من ذاته . فإن هو أحسن قراءة الرموز صار خيالاً وتغلّب على الموت والانحلال ؛ وإن هو أساء قراءتها فاتخذ الرمز بديلاً من المرموز إليه بقي في قبضة الألم والفناء . لأن الرموز تتحوّل وتتبدّل ، أمّا الذي ترمز إليه فواحد لا يتغير ولا يتحوّل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لو كان لنا أن نستفتي الناس كلهم في أيهما أفضل : العقل أم الخيال ؟ لوجدناهم شرقاً وغرباً — ما خلا أفراداً قلائل — ينتصرون للأول دون الثاني . لأنهم — بقطع النظر عن أجناسهم وطبقاتهم — لا يزالون مقيّدين بحواسّهم . فهم يفهمون أو يحسبون أنهم يفهمون « الحجر » ، ولكنّك لو قلت لهم إن الحجر خيال تجسّد وإنهم لن يعرفوه حتى يعرفوا خياله ، لظنّوك تكلّمهم بالطلاسم والأحاجي . وهم يعرفون — أو يعتقدون أنهم يعرفون — الله لأنهم جعلوه إنساناً على صورتهم ومثالهم . إلاّ أنك عندما تقول لهم إن الله خيال مجرّد مطلق وإنّه تجسّد فيهم لينتهي بهم إليه ، يفغرون أفواههم ويحملقون بعيونهم كبدويّ في الصحراء تسأله أن يحدّد لك مبدأ النسبيّة .

لقد تسلّق الشرق بخياله ذرى شاهقة أطلّ منها على الحياة بمجموعها لا بأجزائها ، فرآها جميلة بكمالها كاملة بجمالها . ورآها روحاً أو خيالاً واحداً لا يتجزّأ ولا يتقسم . فعلى طور سينا سمع ذلك الخيال يقول له أن لا حقيقة إلاّه : « أنا هو الرب إلهك . . . لا يكن لك إله غيري » وينهاه عن الاستسلام للعقل الذي لا « يؤمن » إلاّ بالمحسوسات : « لا تصنع لك تمثالاً ولا صورة ما » . وفي « الأوبانيشاد » الهندية ، لا سيّما في تلك المحاورة العلويّة التي تدور بين الأمير « أرجونا » والإله « كريشنا » والتي تُعرف باسم « البهاجفاد جيتا »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(الجيم مصرية) ، تلمح أعلى قمة أدركها الخيال إذ رأى الحياة ذاتاً واحدة لا كيان لذات أخرى إلاّ فيها ولا وصول لإنسان إليها إلاّ بنكران ذاته الحسية المنفردة – وهي عقله – والاعتصام بذاته الكليّة الشاملة – وهي خياله . مثل تلك القمة تلمحها في كرازة بوذا عن « الذات العالمية » و « النرفانا » . وفيما تبقّى لنا من جولات لاوتسو في عالم « الطاو » و « التيه » . وفي بشارة يسوع « بالآب » و « الملكوت » . وفي شهادة محمّد بأن « لا إله إلاّ الله » . وفيما اتصل بنا من آثار أشور وبابل . وفي ذلك السفر الغريب المعروف « بكتاب الموتى » الذي انتشله العقل الغربيّ المنقّب – وتلك منّة نحمدها له – من بقايا أنقاض المدنيّة المصريّة . وفي الأهرام وأبي الهول ، وكلّها رموز الخيال المصري إلى الخيال الأعلى (رع) . أوَما ترى الأهرام تنتهي كلّها « بنقطة » في الفضاء ؟ هي رمز الخيال اللامتناهي . وقواعدها هي العقل وحواسه المؤدّية إلى الخيال . أم لا ترى أبا الهول ونصفه الأول حيوان – أو العقل وحواسه – ينتهي برأس إنسان ذي خيال ؟ فما بالك تستعظم فكرة جاءك بها في الزمان الأخير رجل غربيّ اسمه دارون وتنسى أبا الهول ؟

في ظلال تلك القمم وأخواتها الأصغر منها – التي أدركها عدد كبير من الأنبياء الثانويّين – عاش الشرق أجيالاً طويلة . فكان إذا تطلّع إليها بعين عقله رآها ضباباً ، أو بعين خياله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبصرها شموساً ملتهبة . غير أنّه — سواء تطلّع إليها بعين عقله أم بعين خياله — كان يشعر أبداً بهيبتها وجلالها . فإذا ما نسج ثوباً أو حاك طنفسة أو جبَل إبريقاً من طين أو نقش رسماً على لوحة أو في حجر أو نظم قصيدة أو بنى معبداً أو نظّم مُلكاً ودرّب جيشاً — تسرّب شعوره هذا إلى كلّ أعماله . فكان — من حيث لا يدري — يعبد خياله بعقله . ومن حيث لا يدري كان يجرّ خياله من شاهق علوه لينزل به إلى مستوى عقله. والخيال لا يُعبد إلاّ بالخيال . وهكذا اختلط عليه أمره وأصبحت عبادته مزيجاً غريباً من عبادة البطن والروح ومجموعة من التقاليد والطقوس والرّموز المتحجّرة التي يتلهّى بها العقل عن الخيال . فأنت لا تكاد تمرّ بحيّ من مدينة شرقيّة قحّة حتى تسمع اسم الله ألف مرّة — باسم الله ، وحقّ الله ، وإكراماً لوجه الله إلخ . إلاّ أنك لو فتشت عن الله في الذين يتلفّظون باسمه لوجدته إمّا كلمة على شفاههم أو فلساً في جيوبهم أو لقمة في بطونهم .

لقد ضاع الشرق ما بين عقله وخياله فأصبح من السهل على الغرب المنصرف إلى عقله دون خياله أن يسطو عليه فيستعمره ويستغلّه ويمتهنه . لكنّه لا يستطيع أن يستعمر أو يستغل أو يمتهن منه غير عقله . أمّا خياله فلن يصل إليه لا بتلسكوبه ، ولا بطياراته ، ولا بمدرّعاته ، ولا بدبّاباته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعمري لو قلتَ اليوم لبوذا : « إننا يا غوتاما قد اخترعنا آلة نطير بها إلى قمة إفرست » فماذا عساه يقول لك ؟ إنّه ليجيبك : « ما شأني وشأن آلتك هذه ؟ فأنا قد طرت إلى قمة الحياة – إلى النرفانا – بجناحين ليسا من خشب ولا من حديد . ولا محرّك لهما إلاّ خيالي » .

أو لو قلتَ ليسوع : « إنّنا يا ابن مريم قد اكتشفنا أشعّة نبصر بنورها موضع الداء في داخل الجسم البشري فنداويه » لأجابك : « ما لي ولأشعّتكم هذه ؟ فأنا أبصر الداء وأداويه بأشعّة غير منظورة – هي أشعّة خيالي » .

أو لو قلت لمحمّد : « ها نحن يا رسول الله نتكلم اليوم في دمشق فيسمعنا في الحال بالراديو من هم في مكّة » أوَما كان يجيبك : « أمّا أنا فأسمع بأذن خيالي صوت جبريل من غير راديو . وفي صوته أسمع صوت الله . وفي صوت الله كلّ أصوات الحياة » ؟

لا تعرف المدنيّة الغربيّة من أبي الهول إلاّ من طرف ذنبه حتّى كتفيه . أما رأسه الحامل سحر الخيال ومقدرة الوصول إلى الله فلا يكاد يعنيها منه شيء على الإطلاق . بل هي تنكره على أبي الهول إلاّ متى توصّلت إليه بالعقل وبراهينه . وإنّي لأشفق على أبي الهول لو هو عُرض على الغرب قبل أن يعطيه الشرق رأسه . ترى أيّ شكل من الرؤوس كان يلبسه الغرب ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل كم كان يبدّل له من رؤوس بين يوم وأخيه حسبما تقضي « فحوصه واستقصاءاته وبراهينه العلميّة » ؟ ولعلّه بعد جهود طويلة مضنية كان يمنّ عليه برأس ثعلب . وقل مثل ذلك في ثور أشور وجناحيه .

جُلّ ما فعلته المدنية الغربيّة حتى اليوم — مثل كلّ ما سبقها من مدنيّات عقلية — هو أنّها وسّعت نطاق المحسوسات . وبذلك أكثرت من شهوات الجسد وحاجاته إلى حدّ أنّ الحصول عليها أصبح مقتلة للروح والجسد معاً . فهي ما أكثرت خيرات الأرض حتى أكثرت البطون الفارغة منها بإكثار البطون المتخمة بها . وهي ما أطالت متوسّط العمر سنة حتى أطالت شقاءه سنين . ولا قربت المسافات بين تخوم الأمم فرسخاً حتى أبعدتها بين قلوبها فراسخ . ولا نشرت العلم حتى نشرت الجهل. لأنها في كلّ ما تعلّم لا تستعلم إلاّ العقل الذي لا يعلَم وليس بإمكانه أن يعلَم . وهي ما عزّزت الفنون إلاّ لتجعل ما فيها من روح مطيّة لما فيها من مادة . ولا قصّرت ساعات العمل حتى مدّدت ساعات الطيش والرذيلة والفحشاء . فلا عجب أن يكون لها في كلّ يوم أزمة اقتصاديّة ، أو مشكل سياسي ، أو صدمة تسيل فيها دماؤها وتمزّق لحومها وتتقطّع أمعاؤها .

قال لي أحد الأدباء الشرقيّين وقد سمعني أبسط مثل هذه الأفكار : « إن قناعة الشرق بخياله قد أوصلته إلى ما هو فيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليوم من فقر وضعف وعبوديّة . أمّا الغرب الذي لا يعرف للقناعة معنى فغنيّ وقويّ وعاتٍ . وهو زاحف علينا بسياراته وطياراته ودباباته ، وبمدارسه وفوارسه ومبشريه ، وبزيته النباتي وسمنه النباتي وحريره النباتي . وبعيون « كواكبه » المكحلة وأفخاذهن العارية . وبسواعد مصارعيه وقبضات ملاكميه . وأخشى — إن تفشّت أفكارك في الشرق — ألاّ يبقى هنالك من شرق » . وأنا أعيد هنا ما قلته لذلك الأديب :

الفقير مَن اشتهى الغنى ولم تكن له المقدرة على الوصول إليه . والغنيّ مَن توافرت له المقدرة دون الشهوة . إنما الفقير المدقع هو من توافرت له الشهوة والمقدرة دون الخيال الذي يميت الشهوة وأوجاعها ويستخدم المقدرة للوصول إلى ما هو أبقى من الغنى . الشرق اليوم فقير . أما الغرب فمدقع .

والضعيف مَن اعتقد أن بإمكانه نيل حقّ بالقوة ولم تكن له القوة . والقويّ من توافرت له القوة ومعها الخيال العارف بأن الحقّ لا يؤخذ ولا يُردّ بالسيف . لذلك يترفّع عن امتشاق السيف . إنّما الضعيف الضعيف من كانت له القوّة دون المعرفة بأنّ الحقّ لا رأس له يُكسر بالفأس ويُجبر بالمدفع . الشرق اليوم ضعيف . لكنما الغرب أضعف .

والعبد من انقاد لمشيئة يحسبها غير مشيئته ولا قوّة له على ردّها . والحُر من إذا استسلم لمشيئة جعلها مشيئته . إنّما عبد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العبد هو سيّد العبد . الشرق اليوم عبد . أما الغرب فعبد العبد .

إن مقاومتك العقل بالعقل كضربك الصخر بالصخر — الاثنان يتفتتان إن لم يكن اليوم فغداً . أما مقاومتك العقل بالخيال فكمقاومتك السيف بالهواء — تكلّ يد الضارب ويصدأ السيف ويبقى الهواء طليقاً لا جرح في صدره ، ولا خوف في قلبه ، ولا أنّة بين شفتيه .

ستغمر أمواج المدنيّة الغربيّة وجه المعمور شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . لكنها عندما تبلغ أقدام قمم الخيال الشرقي ستتفقأ عليها غاضبة ، ثم يائسة ، ثم نادمة ، ثم تغسلها مستغفرة وترتدّ عنها وقد تكسّرت في زبدها أشعّة الجمال الملتهب فوقها .

إني أرى خيال الشرق يطلّ على العالم من جديد . والذي سيحمل مشعله نبيّ عزيمةُ الأرض في رجليه وقوّة السماء في ساعديه وبهاء الحقّ في ناظريه ووداعة المعرفة في لسانه وحلاوة المحبة في قلبه .

وسيمشي هذا النبيّ بين الناس شرقاً وغرباً فيتبعه بعض من هم أشدّ تصلّباً للعقل ومحسوساته . ويهرب منه الكثير ممّن يحسبون أنفسهم في رأس أبي الهول وهم ما يزالون في ذنبه .

وسيحمل هذا النبيّ قلبه على كفّه طعاماً لكلّ جائع . فيأكلون منه في الغرب ويتسمّمون . ويتناولون منه في الشرق ويحيون . ولن يُصلَب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملحمة الملاحم

طغت هذه الحرب[1] على قلوب الناس وأفكارهم – المحاربين منهم وغير المحاربين – طغياناً لا عهد لهم بمثله منذ عهدهم بالتاريخ . فهي على شفاه الكبار والصغار في مشارق الأرض ومغاربها ، وملء مسامعهم وأبصارهم ؛ وهي في التراب الذي يطؤون ، والهواء الذي يتنفسون ، وفي ما يأكلون ويشربون ويلبسون ، وكل ما يتصل بهم من قريب وقصي ، وظاهر وخفي . فكأنّما الأرض مسرح واحد والناس جميعهم ممثّلون . وكأنّما الحرب ساحر يهز عصاه فينبري كلٌّ يمثل دوره أتم تمثيل . أو كأنّ الحرب تيار كهربائي هائل ما مس إنساناً من الناس حتى مسهم أجمعين .

تلكم ، في نظري ، هي المعجزة الكبرى التي جاءتنا بها الحرب العالميّة الثانية . فمن بعد أن مرّت بالناس حقبة طويلة تفسخوا في خلالها قبائل لا روابط بينها ، وانتشروا في طول الأرض وعرضها أُمماً وممالك لا تجمعها جامعة ، وراحوا يمثلون مشاهد متقطعة على مسارح متباعدة ، إذا بهم اليوم يمثلون رواية واحدة على مسرح واحد ، وينفعلون في آن واحد بانفعالات واحدة . وهكذا تعود الإنسانيّة المفكّكة فتبدو

---

١ الحرب العالمية الثانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جسداً واحداً تشترك في جهازه العصبي وفي دورته الدمويّة كل الأمم ودماؤها .

أجل ! ذلكم هو الفتح المبين الذي فتحته للناس تلك الحرب من حيث لا يعلمون . فقد أظهرتهم جماعة واحدة تتقاتل في الظاهر وتتطاحن . ولكن على حد ما يتقاتل الممثلون في رواية تندمج مشاهدها وفصولها وكل حركاتها وسكناتها في وحدة رائعة من الفكر والفن . فما من كلمة زائدة ، أو حرف مهمل ، أو حركة في غير محلّها ، أو سكنة إلاّ في أوانها .

أمّا الرواية التي بدأ الناس يمثلونها منذ آدم وحواء غير عارفين ما هي ، ولا الذي ألّفها ، ولا القصد من تأليفها ، فهي ملحمة الملاحم – ملحمة الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء . وما الحرب التي حسبناها كارثة هائلة غير مشهد ضئيل من مشاهدها – ولا أقول فصل كبير من فصولها . وسيَلي ذلك المشهد مشاهد ، ثمّ فصول ، ثمّ مشاهد تتكشّف لنا تفاصيلها لمحة تلو لمحة ، وعاماً بعد عام ، وجيلاً إثر جيل . ولن يُسدل الستار عليها إلاّ بالغلبة الكاملة للإنسان الكامل .

فما أجهل الناس – وهم من نضالهم في البداية – يتوهمون أن ملحمة الإنسان قد أشرفت ، أو تكاد ، على النهاية ، وأن الحرب الأخيرة كانت الفصل الأهم والأخير من فصولها . فلا تضع أوزارها حتى يُسدل الستار على الحروب ليرتفع من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديد عن إنسانيّة ترتع في سلام دائم ، وتنعم بحرّية أو حريات أقلّ بركاتها العدل والحق والمساواة ورغد العيش .

كيف للحرب التي كنّا في غمارها، بل كيف لأي حرب، أن تضع أوزارها وما هي غير مشهد من مشاهد ملحمة الملاحم التي ما برحت ولن تبرح مشبوبة السعير ما دام في السماء وعلى الأرض قيد واحد يقيّد حرية الإنسان ؟

وها هو الإنسان يرسف في قيود لا حصر لها ولا عد . فهو في حربه مع نفسه ما يزال كالخشبة على وجه اليمّ في حربها مع الأمواج. فلا هو سيّد فكره يسيّره كما يشاء ، ولا هو سلطان قلبه يجريه حسب هواه ، ولا هو ربّ جسده يتحكّم فيه بملء إرادته . بل نراه ، على العكس من ذلك ، ألعوبة لأفكاره ، ومطيّة لأهوائه ، وعبداً لجسده . ولن تتم له الغلبة حتى يصبح السلطان المطلق على فكره وقلبه وجسده ، فيجعل منها مثلثاً متساوي الأضلاع ، تستطيل أضلاعه استطالة الزمان ، وتتسع مساحته لكل ما في المكان . ما لاتّزانه نهاية ، ولا على ثباته من خوف .

أمّا نصيب الإنسان في حربه مع الأرض فليس بأوفر منه في حربه مع نفسه . فهذا الكوكب الذي ما ينفك هائماً بنا في مفاوز الفضاء ماذا عسانا نعرف عن ماضيه وحاضره وآتيه ، وعمّا انطوى عليه من العجائب والغرائب ، وعن مقصده

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من دورانه ، وعن شأنه منّا وشأننا منه ؟

ماذا عسانا نعرف عن أسرار ذلك الجو الساحر والمسحور الذي يغلّف هذه الأرض والذي تلتقي فيه جميع أفكارنا وأحلامنا وشهواتنا بأفكار من سبقونا وأحلامهم وشهواتهم فتتشابك وتتلاحم ، وتتصادق وتتعادى ، ويبقى ، مع ذلك ، لكل منها مجراه والنقطة التي منها انطلق وإليها يعود ؟

إنّ جوّنا ليزخر ، فوق ذلك ، بما تبثه فيه الشموس والدراري من حرارة ونور ، وبما تنثره من ذريراتها ، وترسمه من خيالاتها ، وترسله من عجيب أصواتها وأنفاسها ، مثلما يزخر بأنفاس الأرض وكل ما على أديمها من حياة وسائل وجماد .

ماذا عسانا نعرف عن أحشاء أرضنا وما انطوت عليه ، وحتى عن رقعة وجهها وما يتألب عليها من غريب الألوان والأشكال ؟ ثمّ ماذا عسانا نعرف عن منابع الرياح ، ومسارح السحب ، وأعماق اللّجّة ، ومسالك الحياة السرية في خلايا النبات والحيوان والإنسان ؟

لقد جمعنا الكثيرَ من المعلومات عن طبقات الجو وطبقات الأرض ، وعن جمادها ونباتها وحيوانها ؛ وهي معلومات ذات قيمة من غير شك . ولكننا ما نزال غرباء عن الأرض ، وما تزال الأرض كتاباً مُغلَقاً دون أفهامنا . أمّا اختراعاتنا ، على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفرتها ، وأمّا اكتشافاتنا ، على أهميتها ، فما عدَت أن فتحت لنا بعض صفحات من ذلك الكتاب . إلاّ أنّها ما حلّت لنا طلاسمها ولا هدتنا إلى المفتاح لحلّها . فعلومنا وفنوننا ، واختراعاتنا واكتشافاتنا ، ونُظمنا الاجتماعية والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة ليست سوى أدوات لنا في حربنا مع الأرض . أمّا أنّها الأدوات التي تكفل لنا النصر ، وأمّا أنّها جاءتنا بالنصر كما يظن بسطاء العقول ، فوهمٌ فادح لا يحمل إلى المؤمنين به إلاّ الخيبة ومرارة الخيبة . فالأرض ما تزال علامة استفهام رهيبة في وجه الإنسان . والإنسان عبد ما يجهل وسيّد ما يعرف . ولكنّه مطبوع على طلب الحرية . لذلك سيمضي في حربه مع الأرض إلى أن تتم له الغلبة . ولن تتم له الغلبة إلاّ متى توفّق إلى أسلحة أقوى وأبقى وأمضى من التي اهتدى إليها حتى اليوم . والأسلحة تلك جاهزة وموفورة في كيان الإنسان نفسه . إلاّ أنّه ليس « جاهزاً » بعدُ للوصول إليها ولحسن استعمالها . والزمان بطوله كفيل بأن يوصله إليها وبأن يعلّمه كيفيّة استعمالها على أتم وجه .

وأمّا السماء — وأعني بها ذلك العالم المحجوب عن الأبصار لا عن البصائر ، والذي اتفقنا أن ندعوه عالم ما وراء الحسّ أو عالم الروح — أمّا تلكم السماء فالإنسان ما ينفك معها في حرب أين من ضراوتها حربه مع الأرض . فهو ، منذ أن كان ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما برح يفتّش عن مصدره ، وعن مآبه ، وعن الغاية من وجوده ، وعن القصد من تشعُّب حياته ما بين عوامل لا يدرك لها أوّلاً ولا آخراً . فكأن حياته نهر واسع يسير بين شطّين أحدهما شطّ الخير ، أو ما تعوّد أن يدعوه الخير ، والآخر شطّ الشرّ ، أو ما ألف أن يدعوه الشرّ . وبين هذين الشطّين تهبّ عليه تارة ريح مؤاتية فيرى الحياة نعمة وهناء . وطوراً تعصف به العواصف فيرى الحياة نقمة وشقاء .

إن حرب الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء هي في الواقع حرب واحدة يشنّها الإنسان على جبهات ثلاث . وإذا ما فاته النصر حتى اليوم فلأنّه ما يزال حديث العهد بالقتال وأساليبه ، ولأنّ عدّته الحربيّة ما تزال بالنسبة لعدّة أضداده ، كالمقلاع بالنسبة إلى الصاروخ ؛ ولأنّه ، وهذا هو الأهم ، ما تعلّم بعدُ كيف يوحّد قواه وقيادته . ولو أنّه تعلّم ذلك لا غير لأصبحت الغلبة منه على قيد باع وأدنى . لكنّه ماضٍ في حربه الضروس على غرار أسلافه . فحروبه ما برحت حروب قبائل ضد قبائل ، وأمم ضد أمم ، وأجناس ضد أجناس ، ومذاهب ضد مذاهب ، وأقطار ضد أقطار ، وطبقات ضد طبقات . كأنّما الأرض جيفة والناس ضوارٍ وكواسر لا غير . إلاّ أنّها — وأعني حروب الناس — سائرة بهم حتماً ، ومن حيث لا يعلمون ، إلى دولة عالميّة ، ولغة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عالميّة ، ونقد عالمي ، وفي المستقبل البعيد — إلى دين عالمي . فهي مراحل تمهيديّة لتوحيد القيادة والقوى في ملحمة الملاحم — ملحمة الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء .

وها نحن لا نجد للحرب التي اجتاحتنا أمس والحرب التي اجتاحتنا قبلها نعتاً أصدق من قولنا « الحرب العالميّة الثانية » و « الحرب العالميّة الأولى » . وفي ذلك مغزى بعيد لأولي الألباب . وهو أن الأرض التي كانت حتى أمس القريب مسارح لا تربطها صلة أصبحت اليوم مسرحاً واحداً . والعالم الذي كان نتفاً مبعثرة راح يبدو لنا عالماً واحداً . والإنسانيّة التي كانت أعضاء مفكّكة أخذت تبرز لأفكارنا جسداً واحداً يشترك لأوّل مرّة في عمل واحد ، وإن يكن ذلك العمل حربا أقل أهوالها الموت والدمار . وههنا العجيبة — عجيبة المدفع الذي ما خُلق إلاّ للتمزيق والتفرقة يغدو أداة رتق وجمع !

يا ليت لكم أن تنظروا بعيون ما لوّنتها العصبيات القوميّة والدينيّة والإقليميّة . إذاً لعرفتم أن اقتتال الناس من أجل هذه البقعة أو تلك من الأرض ليس سوى تمهيد لقتالهم المشترك في سبيل التغلّب على الأرض وجعلها جنّة آمنة للناس أجمعين . وإذاً لأبصرتم من خلال أغشية السنين القريبة والبعيدة إنسانيّة جديدة تحشد قواها الزاخرة تحت لواء واحد هو لواء الإنسان وبقيادة واحدة هي قيادة الفكر الإنسانيّ الجبّار ، وبإرادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحدة هي إرادة الإنسان التي ما التوت ولن تلتوي في حربها مع المجهول . وإذاً لأدركتم أن كلّ ما ينتاب الإنسان في حياته من تجارب ليس أكثر من مشاحذ لسلاحه وإرادته في ملحمته الهائلة . وإذاً لأيقنتم أن الإنسان لن يخرج من ملحمته تلك إلاّ وقد انفتحت له مغالق الأرض وكُوى السماء ، وأصبح سيّد نفسه المطلق لا ينازعه فيها منازع ولا تحصرها شطوط خير أو شر ، ولا حدود زمان أو مكان .

تلكم هي الحريّة القصوى التي ما من هدف سواها يليق بالإنسان العجيب وبالملحمة العجيبة التي هي حياته . واللّبيب اللّبيب من اتخذها نبراساً لأفكاره ونيّاته ، فجعل من أيّامه ولياليه درجات يرقى بها إلى قلب هيكلها القدوس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إخوة غرباء

يا أخاً لم تلِده أمّي ،

ها أناذا اليوم بين ذراعيك . وها أنت بين ذراعيّ . وعناقنا عناق الراح للماء ، والنور للعين ، والحلم للمنام . فما أحبَّ هذا اليوم إلى قلبي وأشهاه ، وما أجمله تاجاً أتوّج به دهوراً من حياتي أودعتها ذمة الزمان الذي ما خان ولن يخون .

لا يهولنّك يا أخي عَياءٌ في مَفاصلي ، وشحوب في وجنتيّ ، وضباب في مقلتيّ ، وذهول على شفتيّ . فما أذكر — ولعلّ الزمان يذكر — كم فلكاً قطعتُ ، وكم دهراً طويت قبل أن أدركتُ هذا اليوم .

لقد نهكني السير يا أخي . نهكني حتى الموت . ولكنّ الموت ما كان أضعف مني ساعة مثله في هذه الساعة . فأنا ، ويدي في يدك — يد الأخوّة الجبّارة — أمنع من أن تظفر مني براثن الموت وأنيابه ولو بخدش طفيف . وأنا ، وقلبك نابض في قلبي نبضَ الأخوّة التي لا تُقهر ، أقوى من أن يُخرس الفناء أنباضي .

تعبتُ . إي تعبتُ . إلاّ أنّني ما استسلمتُ يوماً للتعب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يئستُ . فمنذ أن حبلت السماء بالحياة فوضعت الأرضَ ، ثمّ حبلت الأرض بالإنسان فوضعتنا في مفازة الوجود توأمين أعزلين إلاّ من الشوق إلى المعرفة ، وقالت لنا : « امضيا في هذه المفازة وتعارفا » — منذ تلك اللحظة مشينا كل واحد في سبيله . ومشت بنا الأرض في سبيلها بين النجوم تقسّم لنا الزمان أيّاماً وأعواماً ، والحياة أدواراً وأعماراً ، فتسوقنا من مهد إلى لحد ، ومن لحد إلى مهد .

وتمادى بنا السير وشطّت بنا الدار . فإذا أنت في واد وأنا في واد . وحملتنا أرحام كثيرة ، وأرضعتنا أمهات كثيرات . فنسيتَني ونسيتك . فلا أنا أعرف لي إخوة إلاّ الذين ولدتهم أمّي . ولا أنت تعرف لك إخوة إلاّ الذين ولدتهم أمّك . أمّا الشوق فيك وفيّ — ذلك الشوق الذي زوّدتناه الأرض يوم وضعتنا في مفازة الوجود — أمّا ذلك الشوق فكان يعرف ما لا نعرف . وكان يذكّرنا فما نذكر .

وإنّي ، وإن غاب عني الكثير ممّا كان مني ومنك ، ما نسيت يوماً أدركتني فيه عاصفة مجنونة ، وكنتُ في قعر واد مظلم ، والجوع قد هدّ حيلي وكاد يجفّف أمعائي . فلجأت من العاصفة إلى كهف في بطن ذلك الوادي . وإذا بك جالس هناك وفي يمينك ضمّة من نبال ، وعن يسارك موقد فيه نار ، وأمامك ظبي طريح وأنت تقطع من لحمه وتشوي على النار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتأكل بينَهم ما بعده نهم .

كان ذلك أوّل عهدي بالنار والنبال . وإذ مددتُ يدي الجائعة إلى الشواء زجرْتَني وزمجرت . فألحتُ وزمجرتُ . وكان بيننا صراع . فكويتَني بجمرة . وطعنتُك بنبلة . وسال منك دم ، وسال مني دم . وامتزجت دماؤنا في بركة واحدة . وصرعتك في النهاية ، فأكلتُ من صيدك وشبعت . وخرجتُ من كهفك ونبالك في قبضتي ، وصيدك في جوفي ، وسرّ نارك في فكري ؛ أمّا في قلبي فكُرهٌ لك قتّال . وعداوة لا تنام .

هكذا تلاقينا من بعد فراق . فلا أنت عرفتني . ولا أنا عرفتك .

وتلاقينا بعد أجيال . وكنتُ قد ابتدعتُ آلة أحوك بها الكساء للعراة . فجئتني أنت وبنوك وبنو بنيك وعليكم ثياب من حياكتي . وظننتكم آتين تشكرون لي جميلي . فرحّبتُ بكم أجمل الترحيب . ولكنّكم جئتم بالسيوف والقسيّ ، فتركتموني وبنيّ وبني بنيّ عراة ومُثخنين بالجراح . وسلبتموني منوالي وانطلقتم .

فلا أنت عرفتني يومذاك . ولا أنا عرفتك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودار الزمان فإذا بك بحّار ماهر وبنّاء سفن عظيم . فجئتك لآخذ عنك فن البناء وتذليل البحار . وكنتَ كريماً فما بخلتَ عليّ بذلك . وبعد أعوام زحفتُ بسفني فحطّمت سفنك وتركتك ورجالك ألعوبة للأمواج وطعاماً للأسماك .

فلا أنت عرفتني يوم ذاك . ولا أنا عرفتك .

ولقد تلاقينا من بعدها مرّات بغير عدّ . وإنّي لأذكر فيما أذكر ، مرة وجدتك فيها جالساً تحت شجرة من التين الهندي وفي يدك كتاب . وكنتَ الأسبق إلى اختراع فن الطباعة . ووجدتك تنشد ما في الكتاب إنشاداً وترنّح إذ تنشد . وكان الكتاب ديواناً من الشعر ، وكنتُ صاحب الديوان . فأعززتني وأكرمتني وما بقيتَ تعرف كيف تُظهر إعجابك بي وتقديرك لي . وكانت من بعدها حرب ما بين قومك وقومي والتقينا في حومة الوغى . فما كان منك إلاّ أن سدّدتَ بندقيتك إلى صدري وصحت : « خذها يا أبغض الناس وعدوّ الله » .

فلا أنت عرفتني يوم ذاك . ولا أنا عرفتك .

وإنّي لأذكر حرباً أخرى كنتُ فيها طبيباً ، فجاؤوني بك مهشّم العظام ، ممزّق الجلد واللحم . وكنتَ عدوّاً . فانكببت عليك أجبر ما تحطّم من عظمك وأرتق ما تفتّق من جلدك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما زلت بك حتى أعدتك رجلاً سويّاً قويّاً . فما كادت الحرب تنتهي وكدتَ تعود إلى بلادك حتى انكببتَ على استنباط سموم فتّاكة تنفثها في الهواء فتقضي عليّ وعلى أبناء قومي .

فلا أنت عرفتني يوم ذاك . ولا أنا عرفتك .

وإنّي لأذكر فيما أذكر أنّك سمعتني ذات يوم أحسد الحوت سابحاً في بحره . فخلقت لي سفينة أقوى من الحوت تجري في غياهب اللجّة . وركبتُ سفينتي الجديدة ورحتُ أطارد بها الحيتان في بحارها . فآناً أغوص ، وآونة أعوم . وإذا بسفينة كسفينتي تجري نحوي . وإذا بك أنت — لا غيرك — تقود تلك السفينة . فما راقني أن تقاسمني البحار . لذلك دعوتك للقتال . وكان قتال . وكان أنين . وكانت بقع حمر على وجه اليمّ . لقد جمعتنا اللجّة بأعماقها السحيقة وأبعادها الهائلة . فما اتسعت لكلينا .

فلا أنت عرفتني يومذاك . ولا أنا عرفتك .

وإنّي لأذكر فيما أذكر أني سمعتك ذات يوم تحسد النسر يشقّ الهواء بجناحيه القويّين ويجول حرّاً في قباب الفضاء فابتدعت لك أجنحة أين منها أجنحة النسور . وانطلقتَ في الجو بجناحيك . وانطلقتُ بجناحيّ . فما راقك أن أقاسمك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفضاء . لذلك انقضضتَ عليّ ولا انقضاض الصاعقة . وكان نِزالٌ . وكان برق ورعد .وفي النهاية هوينا – أنا وأنت – إلى الحضيض نسرين مهشَّمَين .

ونظرتَ إليَّ بعينيكَ الحَمراوين من الغضب فما عرفتني . ونظرتُ إليك بعينيّ الملتهبتين بغضاً فما عرفتك .

وإنّي لأذكر فيما أذكر آلة عجيبة اخترعتَها لتُسمعني بها صوتك وأُسمعك صوتي وإن تكن أنت في أقاصي المشرق وأكن أنا في أقاصي المغرب . فلكَم هلّلتُ لاختراعك وكبّرت. ولكَم قلتُ في داخلي : « الآن نتعارف أنا وأخي التوأم . فبهذه الآلة سأسمع صوته في كلّ حين . وفي صوته سأسمع نبضات قلبه وخلجات فكره . وفي نبضات قلبه وخلجات فكره سأسمع أشواقه إليّ . ومتى سمعتُ أشواقه وأسمعتُه أشواقي عرفته وعرفني من غير شكّ » .

هكذا كنت أقول في داخلي . ولكنّني أصغيت وأصغيت . وماذا عساني سمعت منك ، وماذا عساك سمعت مني ؟

سمعتك تقذفني بالشتيمة تلو الشتيمة ، وتنعتني بأشنع النعوت ، وتصبّ عليّ صفراءك وسويداءك ، وتهددني بالويل والفناء . فأسمعتك من الشتائم أمرّها ، ومن النعوت أفظعها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصببتُ عليك جامات صفرائي وسويدائي . وهدّدتُك بالنّار والدمار .

وهكذا تلاقينا في رحاب الأثير . وحتى في الأثير لا أنت عرفتني . ولا أنا عرفتك .

أجل . إنّي لأذكر أشياء وأشياء لا تحصى ولا تُعَدّ فعلتَها من أجلي وفعلتُها من أجلك . على أنّني ما أذكر شيئاً واحداً أذقتني حلوه إلاّ أذقتك مُرّه . أو رفعتك به إلاّ خفضتني به . فكأن السمّ في فمي شهد في فمك . وكأن النواح في قلبك إنشاد في أذنيّ . وكأن ضرع الأرض لا يجود عليّ إلاّ إذا جفّ عنك ؛ وبساط الفضاء لا يتّسع لجناحيك إلاّ إذا كان شَرَكاً لجناحيّ ؛ وأمواج البحار لا تنقاد لي إلاّ إذا امتنعتْ عليك ؛ وأوتار الأثير لا تهتزّ لأفراحك إلاّ إذا ثملتْ بأحزاني . فلا أنت مني بخمر أو بخلّ ، ولا أنا منك بخلّ أو بخمر .

كذلك كنتُ وإيّاك حتى أمس الدابر — أمسي وأمسك الأعميين . فقد كنّا نقول ونعتقد ما يقوله ويعتقده البُكْم والعميان الذين لا يعرفون أخوّة إلاّ التي تقذفها الأصلاب والأرحام : « أنا وأخي على ابن عمّي ، وأنا وابن عمّي على الغريب » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغريب . . .

ومن هو الغريب ؟ لقد كنتُ حتى الأمس أعرف ما تعنيه تلك الكلمة . أمّا اليوم فمعناها قصيٌّ عن فهمي ووقعها ثقيل في أذنيّ . فهي والحنفشار عندي من مقلع واحد .

ذاك لأنّي اليوم غيري أمس . فما أدري أية يد ساحرة مسحت عينيّ ، وأيّة نسمة قدسيّة لثمت شفتيّ . وإذا بحياتي منذ أن ولدتني الأرض حتى الآن تنكشف لي بغتة بكل خُطاها وخطاياها . وبكل تعاريجها وأسرارها . وإذا بي لا أُبصر لي أثراً في الأرض أو في البحر أو في الجو إلاّ أبصرت بجانبه أثراً مماثلاً لك . وحينئذ أدركت ما كنت أجهل .

أدركتُ يا أخي أنّني ما خطوت خطوة في حياتي إلاّ كانت يدك في يدي ، وساعدك إلى ساعدي ، وكتفك إلى كتفي . وأنّني ما تنفست نَفَساً إلاّ كنتَ شريكي فيه ؛ ولا فكرتُ فكراً إلاّ وخاتم فكرك عليه . وأنّني حييت لا بما فيّ وحدي من حياة ، بل بما فيك وفيّ من حياة . فكنت أُبصر بعينيك ، وتبصر بعينيّ . وكنت أسمع بأذنيك ، وتسمع بأذنيّ . وكنت أتكلّم بشفتيك ، وتتكلّم بشفتيّ . وكنت أمشي برجليك ، وتمشي برجليّ . وها أناذا أستغفرك جميع ذنوبي إليك — وما أكثرها ! فهلاّ غفرت ؟

أدركتُ يا أخي أن ما من نجم أضاء في الفلك إلاّ لي ولك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما من عصفور غرّد إلاّ لي ولك . وما من زهرة باحت بوجدها ، أو ثمرة جادت بشهدها ، أو نسمة همست سرّها ، أو ديمة نثرت دُرّها إلاّ لي ولك . فالأرض لنا — وما أجملها وأسخاها . والسماء لنا — وما أفسحها وأبهاها . ولنا الأخوّة التي تقهر الدهور — فما أغنانا ، وما أقوانا !

لقد كنّا إلى اليوم أخوين غريبين . أمّا اليوم فقد عرفتك . إي ، لقد عرفتك فأحببتك .

وها أناذا أُصافحك فأصافح فيك الحياة . وأُعانقك فأعانق فيك الناس أجمعين .

يا أخاً لم تَلِده أمّي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكيم والسمكة

يُروى عن تْشُوان ــ تْسُو ، الحكيم الصيني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، أنّه خرج يوماً لصيد السمك في نهر من أنهار ولاية تْشو . وإذ هو لاهٍ بالصيد أقبل عليه كبيران من كبراء الدولة ، وباحتشام كلّيّ أطلعاه على رغبة أمير البلاد في إسناد منصبٍ سامٍ إليه ، لأن البلاد في حاجة إلى حكمته . فمضى الحكيم في صيده ، ومن غير أن يلتفت إلى الرسولين أجاب :

« سمعتُ أنّ في قصر الأمير ، على المذبح المكرّس لتكريم الأسلاف ، سلحفاةً مقدّسةً مضى على موتها ثلاثة آلاف سنة . وأن الأمير يغالي في تقديسها فيحفظها محنّطة في صندوقة من الذهب الإبريز . فما قولكما في تلك السلحفاة لو أنّها خُيّرت اليوم ما بين أن تكون ميتة ومحنّطة في صندوقة من الذهب أو أن تكون حيّة تجرجر ذيلها في الأوحال ، فأيّ الأمرين تختار ؟ »

فأجابه الرسولان : إنّها ، من غير شك ، تختار أن تكون حيّة تجرجر ذيلها في الأوحال . عندئذٍ صاح بهما تشوان ــ تسو :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« اغْرُبا عنّي : فأنا كذلك أختار أن أجرجر أذيالي في الأوحال » .

هذه حكاية صغيرة ترويها الكتب عن حكيم كبير من بلاد أنجبت قافلة طويلة من أنبل الحكماء أمثال كونفوشيوس ولاوتسو ومنشيوس وكثير سواهم والحكاية ، كما ترون ، مبطنة عن مغازٍ كثيرة ، أبرزها وأقربها إلى التناول هو أنّ الحكمة تأبَى القيود ، وإن تكن من ذهب ، وتؤثر عليها الحريّة وإن تكن حريّة السلحفاة في الأوحال . فالسياسة وما يلابسها من مداهنة ومواربة وزلفى . والسلطان وما يرافقه من غطرسة وتهويل وتهديد — كل ذلك يتنافى مع ما تفرضه الحكمة من عزّة النفس والاستقامة والصدق والدعة والعطف على الضعيف قبل القويّ .

ذاك أهمّ ما تؤدّيه الحكاية إلى ذهن قارئها . وذاك ما رمى إليه الحكيم الصيني بجوابه الجافّ ، الحاسم . ولكنّ خيالي أبَى عليّ الوقوف عند ذاك الحدّ . فقد شاقه أن يتخيّل تشوان — تسو من بعد أن انصرف عنه الرسولان يعالج سمكة علقت بصِنّارته وقد سحبها بلباقة من الماء إلى اليابسة ثم هرول إليها وأنباضه تتعالى وتتسارع ، وانحنى فوقها انحناءة الغالب فوق المغلوب ، وأخذها بكلتا يديه ، وهي تتلوى بينهما وتتعصّر ، وهو يخشى أن تُفلت منه وتعود إلى الماء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليست السمكة من عمالقة الأسماك ولا من أقزامها . ولكنها في معدة حكيم من درجة تشوان – تسو قد تسدّ جوع ليلة . والغريب في أمرها أنّها ، والصِّنّارة قد نشبت في فكّها الأعلى فنفذت من عينها اليمنى ، ما تزال تحاول الهرب والأغرب من ذلك أنّها من بعد أن انقطع أملها بالنجاة راحت تخاطب صائدها كما لو كانت هي كذلك من الحكماء . وإليكم ما دار بين السمكة والحكيم :

السمكة : منذ دقائق سمعتُ ما قاله لك الرسولان مثلما سمعتُ جوابك لهما . أفتسمح لي أيها الحكيم أن أطرح عليك سؤالاً ؟

الحكيم : تفضلي . فالحكماء يأخذون الحكمة عن جميع المخلوقات . حتى عن الأسماك .

السمكة : فهمتُ ممّا قاله الرسولان أنّك حكيم . ولكن ما الحكمة في جوابك القاسي لهما ؟

الحكيم : اعلمي أن الحكيم لا يعرف للحياة غير معنًى واحد . وذلك المعنى هو الحريّة . فحيث لا حرّيّة لا حياة . وكلّ ما يحدّ من حريّة الحكيم هو موت له .

السمكة : وما هي الحريّة ؟

الحكيم : هي أن أفكّر ما أشاء وأشتهي ما أشاء وأعمل ما أشاء ساعة أشاء .

السمكة : وأين أنت من الحريّة ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكيم : في الصّميم . لذلك أبيتُ على أمير البلاد أن يقيّدني بمنصب مهما يكن رفيعاً . وآثرت البقاء حرّاً أصطاد السمك ساعة أشاء .

السمكة : أتراني أعظم من أمير البلاد ؟

الحكيم : كيف ذلك ولا وجه شبه بينك وبينه ؟

السمكة : لقد فعلتُ ما لم يستطعه أميرك . إذ قيّدتك بيديك ورجليك وقلبك وفكرك .

الحكيم : لا أفهم .

السمكة : وحريّ بك أن تفهم وأنت الحكيم .

الحكيم : ولكن حكمتي غير حكمة الأسماك . أفصحي .

السمكة : أما ترى أنّك منذ الصّباح الباكر وأنت تطرح صنّارتك في هذا النهر ؟ ولقد رأيتُ أكثر من واحدة من رفيقاتي يأكلن طعمك ويمضين في سبيلهن . وكم سمعتك تتحرّق وتتبرّم وتتوعّد . وأنا أكلت طعمك مرّتين . أمّا الثالثة فكانت وبالاً عليّ — وعليك .

الحكيم : عليكِ — نعم . أمّا عليّ فلا . ولكن ما دخل ذلك في حرّيّتي ؟

السمكة : لقد كنتَ عبدي منذ الصّباح الباكر حتى الآن . وها هو النهار قد انتصف . فكأنّك رهنت لي نصف نهار من حياتك وحرّيّتك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكيم : نصف نهار ليس بالشيء الكثير أرهنه لحاجاتي الجسدية .

السمكة : وكم رهنتَ من حياتك وحرّيّتك لصانع صنّارتك ، وصانع القصبة والخيط ، وصانع حذائك والكساء الذي على بدنك ، وباني كوخك ، وخابز خبزك ، والذين يموّنونك بالزيت والصابون والشاي والحطب وسواها وسواها ممّا تحتاج إليه في كلّ يوم ؟

الحكيم : ما أفهم القصد من كل هذا الهرْف .

السمكة : وحريّ بك أن تفهم وأنت الحكيم . أين حرّيتك ، وجسدك رهين كل من في أيديهم قضاء حاجاته ؟ فهو رهين كلّ ما على الأرض وفي السماء .

الحكيم : إن يكن جسدي رهين المخلوقات ففكري طليق . وتشوان — تسو بفكره لا بجسده .

السمكة : وها أنت قد رهنت لي من فكرك قسطاً غير يسير . وأنا سمكة حقيرة . فكيف بغيري من المخلوقات وهي لا تحصى ؟ ومن أين أفكارك إلاّ منها وممّن سبقك وعاصرك من النّاس وغير النّاس ؟

الحكيم : ذاك صحيح . ولكنّ ما أخذتُه من الناس وغير الناس قد جعلني مستقلاً عن الناس وغير النّاس .

السمكة : بمثل هذه التّرهات يتعزّى الحكماء . وقلبك أيها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكيم ، أليس هو كذلك رهين ما على الأرض وفي السماء ؟

بل هو رهيني من الآن حتى أصبح في جوفك .

الحكيم : كلاّ ثمّ كلاّ . فأنا لا أشتهي ما يشتهيه الناس ولا أسلّم قلبي لأهوائهم . فقياد قلبي في يدي .

السمكة : وها أنت اشتهيتني كما يشتهيني باقي الناس فسلّمتني قياد قلبك . لأن القلب رهين ما يشتهيه .

الحكيم : لو اتخذنا قولكِ ميزاناً للحرّيّة أيتها السمكة الرعناء لما كان في الأرض ولا إنسان حرّ .

السمكة : ومن قال لك إن على سطح الأرض إنساناً حرّاً ؟ الناس رهائن ما يجهلون . ولن ينعتقوا من أي مجهول حتى يعرفوا كلّ مجهول . وها أنت تجهل أنّك إذ تُتلف حياتي وحرّيّتي إنما تتلف جانباً من حياتك وحريتك . فمثلما تؤذي تؤذَى . ومثلما تأكل تؤكل . ولكن أنّى لك ، وأنت الحكيم ، أن تفقه ذلك ؟

الحكيم : لو صدّقتكِ لوجدتني لا أملك من حياتي وحرّيّتي قيد شعرة .

السمكة : صدّقني أيها الحكيم . أما جئت هذا النهر لأنّك شئت أن تصطاد سمكاً ؟

الحكيم : بلى ، وقد تمّ لي ما شئت .

السمكة : أما كنت تؤثر أن تصطاد سمكة أكبر مني بكثير ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكيم : بلى .

السمكة : إذن أنت إذ حصلت عليّ حصلت على غير ما كنت تشاء . فأين حرّيّتك ؟ وهل تكون الحرّيّة بدون مشيئة ؟

الحكيم : لا . لا تكون الحرّيّة بغير إرادة حرّة .

السمكة : وهل أنت حرّ في كلّ ما تريده أيها الحكيم ؟ إذن مُرِ النعاس والجوع والعطش والتعب والمرض والموت أن تأتيك ساعة تشاء وأن تنصرف ساعة تشاء . ثمّ مُرْ أحلامك في الليل وأفكارك في النهار أن تجري حسب هواك . وإن أنت لم تستطع كل ذلك فأين حرّيّتك أيها الحكيم ؟

الحكيم : ما أفهم إلى مَ ترمين بمثل هذا الكلام . أتريدين أن تقولي إن تشوان ــ تسو ، وهو الحكيم المكرَّم والمبجَّل ، ليس حرّاً ؟ وها هو على مسمع منك قد ازدرى بأعلى منصب في البلاد ليبقى حرّاً من كلّ قيد .

السمكة : لا تفهم وحريٌّ بك أن تفهم وأنت الحكيم . أمّا الذي أريد قوله فهو أنّ تشوان ــ تسو واهمٌ كباقي الناس . يتغنى بالحرّيّة ولكن بلسان عبد وشفتَيْ عبد وقلب عبد . وأحْرِ به أن يفهم ، وهو الحكيم ، أن الناس ، ما زالوا من لحم ودم ، فهم رهناء الناس وغير الناس وعبثاً يتلفظون باسم الحرّيّة . فهم صيّادو سمك لا غير .

الحكيم : صيّادو سمك لا غير ؟ وماذا تعنين بذلك ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأيّ علاقة لصيد السمك بالحرّيّة ؟

السمكة : كم مرّة طرحت صنّارتك في هذا النهر منذ جئته في الصباح ؟

الحكيم : لست أذكر . فقد يكون عشرين مرّة . وقد يكون مائة . وأيّة علاقة لذلك بالحرّيّة ؟

السمكة : أكنت تريد في كلّ مرّة أن تصطاد سمكة بعينها ؟

الحكيم : كلاّ . وكيف لي ذلك وأنا لا أُبصر ما في الماء ؟

السمكة : أما كنتَ تريد أن تصطاد في كل مرّة سمكة كبيرة ؟

الحكيم : بلى .

السمكة : وكم سمكة اصطدت ؟

الحكيم : ما اصطدت من سوء حظّي إلاّ سمكة صغيرة ثرثارة .

السمكة : أكنت تقصدها بعينها حين طرحت صنّارتك في الماء ؟

الحكيم : لو كنت أعرف أن صنّارتي ستأتيني بمثلها لحطّمتها .

السمكة : إذن أنت لم تختر بي بذاتي . ولا أردتني وحدي من بين كل ما في النهر من أسماك .

الحكيم : ذاك أكيد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السمكة : وهكذا الناس يا تشوان – تسو : لكلٍّ صنّارته يطرحها في هذا النهر أو ذلك البحر من أنهار الحياة وبحارها . وصنّارته إرادته . فحيناً تعلق بها سمكة . وحيناً تعلق بها طحالب وحشائش وأقذار . وحيناً لا تعلق بها إلاّ الخيبة . وما من صيّاد سمك يقصد سمكة بعينها إذ يطرح صنّارته أو شبكته في الماء . فهو أعمى يصطاد في الظلمة ولا يدري بماذا تمنّ عليه الظلمة .

الحكيم : ومَن ذا الذي يقضي لصنّارتي أن تعلق بها سمكة ثرثارة مثلك ، ولصنّارة غيري أن تعلق بها لؤلؤة ، ولصنّارة الثالث أن تعود بالخيبة ؟

السمكة : لعلّه النهر يا تشوان – تسو . ولعلّه تشوان – تسو والنهر معاً . فأنت متى أتيت النهر راضياً بما سيَقسِمه لك فقد جعلتَ إرادته إرادتك . وكنتَ إذ ذاك حكيماً حقّاً . فسلكت أوّل الطريق إلى الحرّيّة .

الحكيم : إن طريق الحرّيّة لطريق موحش وشائك .

السمكة : بل هو بساط من الريح لمن يريد ما يعرف ويعرف ما يريد . والآن عد أدراجك يا تشوان – تسو ، واستغفر الحرّيّة ألف مرّة ومرّة . فإن هي غفرت لك ذنوبك إليها غفرتُ لك ذنبك إليّ . انطلق بسلام .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان أنّ تشوان – تسو ذُهل عن السمكة بحديثها . فما أتمّت كلامها حتى قفزت من يده إلى الماء . فانتفض كمن أفاق من كابوس . ثمّ راح يتأمّل الماء يجري وئيداً في النهر وعلى وجه الماء قد طفت القصبة التي كانت في يده .

وما درى تشوان – تسو كيف أفلتت السمكة من يده ومعها القصبة ، ولا كيف أدركه الظلام . ولكنّه تنفّس الصُّعداء وقفل راجعاً من حيث جاء . وكان يمشي شاعراً كأنّه محمول على بساط من الريح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضباب

قلّ في الناس من يحبّ الضباب . وأكثرهم يتحمّله على مضض مثلما يتحمّل الذبابَ والبرغشَ والعواصف والأوبئة وذلك الصنفَ المأفون من البشر الذي دأبه أبداً إصلاح الكون من غير أن يفكّر يوماً بإصلاح نفسه .

أمّا رجال البحر ورجال الجوّ فيتعوّذون بالله من الضباب كما يتعوّذ المؤمن من الوسواس الخنّاس . فالضباب عدوّهم الأكبر والألدّ . ولا بدع فقد ابتزّ من صفوفهم أرواحاً بغير عدّ . وهم يسعون ليل نهار ، وبكل ما أوتوه من قوّة الاستنباط ، إلى الاحتيال عليه بطريقة ، أو طرق ، تكسر من شوكته وتحدّ من أذاه . وقد ربحوا في حربهم معه حتّى اليوم معارك ذات شأن . لكنهم لم يربحوا بعدُ المعركة الحاسمة . ولعلّ النصر مكتوب لهم في كتاب الغيب العظيم .

إنّي لأفهم — أو إخالني أفهم — لماذا يتبرّم الناس بالضباب . فهو ، وإن يكن ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، إلاّ أنّه يبدو كما لو كان غير لائق بذوق الطبيعة وفنّها وأمومتها . فالطبيعة آية في الذوق والفنّ والحنان عندما ترفع أوشالاً من البحر إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجو فتسوقها في شكل غمامة من هنا إلى هناك إلى هنالك . ثمّ لا تنفكّ تغيّر وتبدّل في هندستها وألوانها ما بين لحظة ولحظة . فكأنّها تحفة فنّيّة تعرضها على الناس ، أو كأنّها قِربةٌ سحريّة ملأتها بإكسير الحياة وراحت تلوّح بها للأمصار والأمعاء العطشى قائلة لها : «لا تيأسي . ففي بحاري ريّ لكلّ عطشان . »

لكنّها — وأعني الطبيعة — عندما ترفع مثل تلك الأوشال ثمّ تمضي تندفها بمِنْدَفها العجيب كأنّها القطن ، ثمّ تحملها على أكفّ الريح فتبسطها بطرفة عين أكفاناً كثيفة تلفّ بها الأرض جبالها وأغوارها ، وحزونها ونجادها ، وغاباتها وصحاريها ، وكلّ ما هبّ عليها ودبّ . أقول ، عندما تفعل الطبيعة ذلك تفسح المجال واسعاً للشك في ذوقها وفنّها وأمومتها . إنّها إذ ذاك لندّافة ماهرة لا فنّانة ساحرة . وإنّها لرَابّةٌ كؤود لا أمّ رؤوم . لا سيّما إذا ما غشانا ضبابها في النهار فحوّله ليلاً أنفاسه لَزِجة ، لاهثة ؛ وأنباضه متباطئة ، متثاقلة ؛ وأصواته خافتة ، واجمة ؛ وأبصاره معصوبة ، مكدودة .

إنّه لَلَيلٌ غريب حقّاً — ذلك الليل الذي يفرضه علينا الضباب أحياناً حتّى في رائعة النهار . ليلٌ أبيض الحنادس ، هفاف الجلابيب ، نديّ الملامس . إلاّ أنّه ساحر ماكر . فهو بمسحة كفّ يمحو معالم الأرض والسماء ، وجميع ما تنطوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه من بديع الأشكال والألوان . فكأنّما الأرض غير الأرض والسماء غير السماء . بل كأنّما لا أرض هناك ولا سماء . لقد تبدلت الأشياء وانصهرت ثمّ تبخّرت ضباباً . فالضباب هو الكل في الكل . لا ألوان غير لونه ، ولا أشكال إلاّ شكله . ويا ليت لونه كان لوناً يُعرف . ويا ليت شكله كان شكلاً يوصف .

على أن الضباب ، رغم مقتنا إيّاه ، لا يخلو من فتنة بالغة ووحي جميل . فأنا قلّما عرفت مشهداً يفوق بروعته سماء مجلوّة ، وجبالاً حالمة ، ومروجاً ضاحكة ، ثمّ بحراً في غلالة من نور يتنفّس هانئاً فتنعقد أنفاسه سُحُباً لؤلؤية من فوقه لا تلبث أن تندفع نحو الشاطىء كأنّها الجيش المدرَّب أتمّ تدريب وقد جاءهُ الأمر بالهجوم . ويمضي ذلك الجيش في اندفاعه إلى الأمام لا تصدّه غابة ، ولا يعوقه نهر ، ولا يثنيه وادٍ ، ولا تمتنع عليه قمّة . وما هي إلاّ دقائق حتى يصبح السيّد المطلق في الميدان ، وقد حجب السماء والأرض . فما من شيء يُبْصَر إلاّه . وما من حقيقة إلا حقيقته . والغريب في أمره أنّه جيش سلاحه في أنّه أعزل من كلّ سلاح ، وصلابته في أنّه ألين من كلّ ما في الكون ، وقوّته في امتثاله الأعمى للإرادة التي تقودهُ .

أدركني الضباب مرّة على رأس جبل كسَتْه أحراج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كثيفة من الشوح والأرز والشربين . فوقفت كالمسحور أرقب طلائعه المسرعة نحوي من كل صوب . لقد كانت تتمزّق كلّما ارتطمت بجذوع الأشجار فلا تلبث أن تلتئم بلمحة الطرف لتتابع زحفها الجارف إلى الأمام . وإذا بالأشجار تغيب عن أبصاري واحدة تلو واحدة . وجماعة بعد جماعة .

وإذا بي ، والضباب يكتنفني من كلّ جانب ، كأنّني الإنسان الأوحد في الكون . ولولا رقعة ضيّقة من التراب ما برحتُ أبصرها وأحسّها تحت قدميّ ؛ ولولا فسحة باعَيْن أو ثلاثة من الهواء بقيتُ أميّز من خلالها بعض الجذوع والأغصان لحسبتني لا تربطني رابطة بالأرض ولا بالسماء .

إنّه لشعور غريب ورهيب في آن ؛ ذلك الشعور بأنّك « ما بين طرفة عين وانتباهتها » قد انسلختَ عن دنياك ولم يبقَ لديك منها غير ذكريات محفوظة في تلافيف الدماغ . فالسماء بأجرامها ذكرى لا غير . والأرض بمن عليها وبما عليها ذكرى لا غير . لقد انطمس الكلّ في رشاش أغبر مستطير ، ولم يبقَ غيرك . أنت وحدك ما تغيّر فيك شيء . أمّا سائر الكائنات التي كنت تستعين بها وتستأنس جوارها ، وتستمتع بجمالاتها فقد اندثرت — اضمحلّت — غاصت في لا شيء . أتراها ما كانت يوماً غير أوهام وأضغاث أحلام ؟

وأنت — أنت الواقف في وسط ذلك الخضمّ الذي ابتلع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلّ ما في الكون إلاّك ـ أتراك وحدك أقوى من الضباب ؟ وتراك وحدك الحقيقة الأزليّة الأبديّة التي في قلبها تولد وتترعرع كلّ حقيقة في الوجود ؟

ويجمح بك الخيال . فإذا أنت كذلك ذرّات منثورة مع الضباب . بل أنت ذلك الضباب حيث لا حدود ولا تخوم ، ولا بدايات أو نهايات . حيث لا موت ولا حياة ؛ فلا جهد ولا تعب ؛ ولا فرح ولا ترح ؛ ولا نزاع أو خصام ، ولا خوف أو انتقام . بل محيط بغير شطوط ، لا تسوطه العواصف ولا تعبث به الأنواء . فما تتلاطم فيه أمواج ولا يتطاير منه زبد في الفضاء .

إلاّ أنّك ، مهما طوّح بك الخيال ، تشعر في أعماقك بأن الضباب ضباب . فهو لا شك منقشع عاجلاً أو آجلاً .

وتعرف أن عند الطبيعة الساحرة وأمّ الساحرين رُقْيَةً لكلّ سحر . فبمثل خفّة اليد التي بها تبسط من أنفاس الأرض غشاوة للأرض تعود فتجمع تلك الغشاوة ثمّ تفركها أو تنفخ فيها فإذا بها لا شيء . وإذا بالأرض هي هي . وإذا بسكّانها هم هم . وإذا بالقبّة الزرقاء ما تزال قبة زرقاء ، وبالوشائج التي كانت تربطك بكل ما في الكون ما تنفكّ تشدّك إلى كل ما في الكون . فأنت أنت ؛ ذلك الكائن العجيب الهائم على وجهه في الأرض من غير أن يدرك الشبه العظيم بينه وبين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرض ، وبين ضبابه وضبابها .

أما ترون أن الإنسان يكاد يكون صورةً مصغرة للأرض ؟

في الأرض ربيع وصيف وخريف وشتاء . ونحن ما نفتأ نتكلّم عن ربيع الإنسان وصيفه وخريفه وشتائه .

في الأرض أعالٍ وأغوار ، وبحار وأنهار . وفي الإنسان أعاليه وأغواره ، وبحاره وأنهاره .

في الأرض معادنها ونباتها ، وحيوانها وحشراتها . وفي الإنسان معادنه ونباته ، وحيوانه وحشراته .

للأرض جوّها الخاص يتكاثف عند قشرتها ويتلطّف كلّما ابتعد عنها . ولكلّ إنسان جوّه الخاص يتكاثف بالقرب منه ويتلطّف بابتعاده عنه .

وأخيراً في الأرض ضبابها وفي الإنسان ضبابه . والضباب في الأرض تبخّرات تنشرها حرارة الشمس من البحر والمستنقعات والأماكن الرطبة . والضباب في الإنسان تبخّرات تبعثها حرارة الحياة من بحور النفس ومستنقعاتها . ومثلما يحجب ضبابُ الأرض معالمَ الأرض يحجب ضباب النفس معالم النفس .

هكذا فما الحزن إلاّ ضباب ينبعث من مستنقعات الخوف والضعف والإلحاد فيغمر النفس ويُعميها عن كل ما في الحياة من طمأنينة وقوّة وإيمان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا الجذَل النشوان بسلافة الملذات البهيميّة يعصرها الجهل من جيفٍ في قلوب الناس ويقطّرها بأنابيق من « آه » و « أوّاه » . إن ذاك الجذل لضباب كذلك .

وهكذا الغضب ضباب تنشره الحماقة من مستنقعات الأنانية الخسيسة التي تأبَى أن تطيع وألاّ تطاع .

ضبابٌ هو الشك ، وضبابٌ هو اليأس . ضبابٌ بسمة المنتصر ورعشة المنكسر . وضبابٌ هذه الفوضى الفكريّة والعاطفيّة المنتشرة في جوّ أرضنا مع رياح الأحقاد والمطامع . ونحن اليوم ، أكثر منّا في أيّ يوم ، إنّما نحتاج إلى من يذكّرنا بأن الضباب ضباب ، لا إلى من يخلق فينا مستنقعات جديدة ينبعث منها ضباب جديد فيتركنا وكأن ما من حقيقة فينا سوى الضباب .

إنّ أذن العالم تشكو اليوم أوقاراً من جلجلة السياسيين ، ودندنة الاقتصاديين ، وشقشقة الفقهاء ، وثرثرة المصلحين . وهي أشوق ما تكون إلى الصوت الذي سيغنّيها بطولةَ الإنسان في حربه مع نفسه لا مَعَ جاره وأخيه ؛ وعظمةَ الإنسان كعالم تجمهرت فيه كل العوالم ، لا كمواطن كبير في بقعة صغيرة من هذه الكرة الصغيرة ؛ وجلالَ الإنسان كصورة ناطقة ومثالٍ حيّ للقدرة التي منها انبثق ، لا كعطّار أو كجزّار .

وإن عين العالم ، وقد أضناها وكاد يعميها ضباب العالم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لفي انتظار اليد التي ستكشح عنها الضباب لترى جمال الإنسان – ذلك الجمال الذي ، وإن تحجّب عن الحَسْرى والمرمَدين ، ما كان – ولن يكون – ضباباً في ضباب .

ولعلّ اليوم الذي سنسمع فيه ذلك الصوت ونبصر تلك اليد ليس ببعيد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طائر الفينكس

أسطورة الحياة المثلى

لعلّ أصعب ما يلاقيه الفكر هو الفصل بين حقيقة الوجود وأوهامه . غير أنّ أكثر النّاس لا يفكّرون . فلا يتردّدون لحظة في إقامة الحدود بين ما يدعونه حقيقة وما يروقهم أن يدمغوه بدمغة الوهم أو الخرافة . هكذا فالغراب في نظرهم حقيقة . أمّا الفينكس فخرافة لا يؤمن بها إلاّ البسطاء والقدماء .

ألا فليزجّني من شاء بين القدماء والبسطاء . لأنّني أؤمن بالفينكس . وأنا أؤمن به لأنّني أؤمن بالخيال الذي ابتدعه . أوَليس الخيال حقيقة ؟ إذنْ كلّ ما يحبل به الخيال ويلده ويغذيه ، أكان أجمل الجميل أم أقبح القبيح ، يشترك في حقيقة الخيال . ونحن لو نظرنا في الخيال الذي يعمل بغير انقطاع لوجدنا أنّ ما دون التزر من أعماله يتّخذ شكلاً محسوساً . فلو رضينا بهذا التزر وحده حقيقةً ، ونبذنا ما تبقّى كما لو كان وهماً أو غير حقيقة ، إذن لكان الخيال ذاته خرافة ، والإنسان نفسه أسطورة .

إنّ خيالاً يلد طائراً كالفينكس لخيال مبدع في ذاته ومن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذاته . لقد خلق الإنسانُ الفينكس ومن حقّه أن ينظر إلى ما خلقه ويقول : « إنّه لحَسنٌ جدّاً » . بل إنّني أُضيف إلى ذلك ، وإن رماني البعض بالتجديف ، أنّ الله نفسه ، لو أنّه فكّر بطائر كهذا الطائر ، لخلق واحداً مثله . وقد يكون أنّ خيال الإنسان يتمّم خيال خالقه . أوَلم يصنع اللهُ الإنسان على صورته ومثاله ؟

مِن روايات هذه الأسطورة المتعدّدة الرّوايات أنّ الفينكس يسكن الجزيرة العربيّة . فتعال نفلت ، ولو بضع دقائق ، من نطاق الجدران والسقوف ونهرب بالخيال إلى غابة في مجاهل تلك الشقّة من الجزيرة التي دعاها الأقدمون « العربيّة السعيدة » والتي نعرفها اليوم باسم اليَمن . لعلّنا نطل على الفينكس في موطنه .

ها هي الشمس قد ارتفعت في المشرق . السماء صافية زرقاء ، ونسمات الصبح العليلة تتهادى بين الأشجار مدغدغة أوراقها الغضّة . في الغابة نهر عميق يسير بجلال نحو البحر حاملاً على صفحته الصافية خيالات الأشجار والأدغال المتعانقة على جانبيه . أنّى التفتّ جمال وسلام . حتّى لتحسبك في جنّة من جنان الفردوس .

غير أنّ الأشجار تحذّرك من الانخداع بالظواهر ، فهي تعرف أنّ فيها وعليها وحواليها قد اشتبك الموت والحياة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صراع عنيف . كلّ ما في الغابة من مخلوقات تمشي ، ومخلوقات تدبّ أو تزحف ، ومخلوقات تمتطي الهواء وتهمزه بالأغاريد يدأب بغير انقطاع طالباً غذاء لنفسه أو مطلوباً ليكون غذاء لسواه . ولا مفرّ من ذلك الدُّردور حتى للصخور . كلّ ما ينبثق من الأرض تبتلعه الأرض رويداً رويداً لتعود فتلفظه حيوانات وطيوراً وزحّافات وحشرات وأشجاراً وأعشاباً وأزهاراً . فالحياة ههنا ، شأنها في سائر المسكونة ، تشتعل كعليقة موسى من غير أن تحترق .

في رأس أعلى شجرة من الغابة قد جثم طائرٌ لا شبيه له في كلّ الخليقة . وقد اتّجه نحو الشمس فبانت كلّ ريشة من صدره القرمزي الناعم كما لو كانت تلتهب بنار من عالم آخر . وكل ريشة من جناحيه الذهبيّين ، المغموسة أطرافهما في زرقة ولا زرقة السماء ، كما لو كانت تقدح شراراً من شرار الثريا . عنقه الطويل الجميل ، المطوّق بطوق ناصع البياض ، قد تقوّس إلى الأمام . أمّا رأسه الدقيق الصنع فقد ارتدّ قليلاً إلى الوراء مصوّباً منقاره الحادّ نحو الشمس .

لقد جمع هذا الطائر بين زخرفة الطاووس وجمال طائر الفردوس دون خُيَلاء الأوّل وخجل الثاني . وهو ينظر بطمأنينة إلى الشرق كأنّه لا يشعر بوجود شيء في العالم إلاّ الشمس — مصدر النور والحياة . ترفرف من حواليه طيور كثيرة ما بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبيرة وصغيرة ، وإذ تمرّ به تخفض أجنحتها مسلّمةً عليه سلام إعجاب واحترام . حتى إن القويّ من الفَراش الذي تمكّنه أجنحته من الوصول إليه يرفرف حواليه مرّتين أو ثلاثاً ثم يهبط إلى الأرض شاكراً جذِلاً .

الغابة تعجّ بالأصوات من طائر يناجي عشيره أو وحش ينادي رفيقه . إلاّ هذا الطائر الغريب ، فهو لا يناجي أحداً ولا أحد يناجيه . إذ لا عشير له ولا رفيق ، لا في مشارق الأرض ولا في مغاربها ، ولا في عالم آخر من العوالم الدائرة في الفضاء . سواه من الطيور منهمك في بناء أعشاش أو تربية فراخ . أمّا هو فلا عشّ يبنيه ولا فراخ يزقّها . سواه يرفرف هنا وهنالك طالباً قوتاً . أمّا هو فلا يقتات بشيء حيّ بل بالبخور والعطور . سواه من الطيور يصيح فَرَقاً وقد علق في مخالب عدوّه . أمّا هو فلا يعرف الخوف لأنّه لا يؤذي مخلوقاً فلا يؤذيه مخلوق ، لا ولا تؤذيه العناصر . هو وحيد في العالم كلّه . لكنّه لا وحدة في قلبه ولا وحشة . سواه من الطيور يبدّل ريشه مرّة في كلّ عام . أمّا هو فلم يبدل ريشة واحدة منذ أن كان له من العمر يوم واحد — وذلك منذ خمسمائة سنة !

لقد نبتت في الغابة أشجار كثيرة فنمت حتى طالت السحاب . ثمّ هرمت وتفتّتت وأخلت مكانها لأشجار أخرى . ولقد جرفت الفصول المسرعة أجيالاً لا تحصى من الطيور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحشرات والحيوانات ثمّ جاءت بغيرها لتحلّ محلّها . ووراء حدود الغابة ، في مملكة الإنسان ، قد طغت موجة بعد موجة من أعمال الناس ثمّ تكسّرت وتبعثرت على شواطىء الزمان الذي لا بداية له ولا نهاية .

أمم بكاملها أطلّت على الحياة ثمّ توارت ، فكأنّها لم تكن . ومدن عديدة شمخت بأبراجها وقببها إلى السماء فلم تلبث أن عانقت التراب . ممالك علت ثمّ انخفضت . غزاة ومغزوّون . أبطال وأنذال . عاشقون ومعشوقون . رؤوس متوّجة ورؤوس بغير تيجان — كلّ هؤلاء وهذه مشوا فترة على الأرض ثمّ عادت الأرض فاحتضنتهم ليمشي فوقهم سواهم من أبناء الأرض . حيث كانت تكرّ أنهار جبّارة نبتت اليوم أشواك وأحساك وأدغال وبنى النمل قراه والجراذين أجحارها .

كم من جنائن غنّاء ابتلعتها الصحراء ، وكم من صحراء أورقت وأزهرت ! كم إله أُنزل عن عرشه وإله أُجلس على عرش ! كلّ ما في الكون قد تغيّر وتحوّل في غضون خمسة قرون . إلاّ هذا الطائر الذي في عينيّه — كما في عينيّ يهوه — « ألف سنة كيوم أمس الذي عبر وكهجعة من الليل » .

غير أنّ الوقت قد أزف حتى للفينكس أن « يتغيّر » . لا صوت يهمس في أذنيه . ولا إصبع تدلّه كيف يتّجه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا قوّة خارجيّة تأمره أن يفعل ما هو مزمع أن يفعله . لكنّه بدليل من نفسه ، وبصوت من داخله يدير وجهه نحو الشمال الغربي ، وبعد أن يصفّق بجناحيه ثلاثاً ، يمتطي الهواء . ولا حزن في قلبه على أمسية خمسة قرون يتركها وراءه ، ولا خوف من أغدية خمسةٍ أخرى يقابلها . وهو يعرف محجّته كلّ المعرفة .

في وادي النيل البعيد مدينة كان المصريّون يدعونها « آنّو » والعبرانيون « بيت شمس » والروم « هليوبوليس » . وفي تلك المدينة هيكل مكرَّس لعبادة الإله « رَعْ » .

الفينكس يعرف المدينة والهيكل ، ويعرف الفسحة التي سيستقرّ عليها من المذبح . لأنّه منذ أجيال لا تحصى يقصد إلى جلجثته هذه مرّة في كلّ خمسمائة سنة ليتقبّل عليها الموت . ومرّة في كلّ خمسمائة سنة يعود منها تاركاً الموت في حيرة وارتباك .

يشقّ الفينكس الهواء بجناحيه القويّين مسرعاً نحو وادي النيل . فتجتمع من حوله شتّى الطيور لترافقه ولو بعض المسافة فتُظهر له تجلّتها واحترامها . ولا يزال يطوي المسافات إلى أن تبدو لعينيه هليوبوليس .

في هيكل رَعْ نافذة فوق المذبح تطلّ منها الشمس فتمتزج أشعتها بدخان البخور وتضفر منه غدائر من ذهب وفضّة كأنّها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنفاس أرواح تائهة . وهذه الغدائر تلتفّ وتنحلّ فوق المذبح كأنّها خيوط ممدودة على منوال خفيّ وكأنّ يداً خفيّة تحوك منها أنسجة غريبة . وليس في الهيكل الواسع المظلم سوى كاهن عجوز غارق في تأمّلاته .

يسمع الكاهن بغتة حفيف أجنحة يقطع عليه مجرى تأملاته . وإذ يرفع عينيه يبصر على المذبح طائراً عجيباً يغتسل بنور الشمس ، وقطّ لم تقع عيناه على أجمل منه . فتأخذه الدهشة . ولا تلبث دهشته أن تنقلب إلى رهبة إذ يحدّق إلى الطائر فيراه قد انتصب رافعاً جناحيه إلى فوق . ثم يراه يصفّق بهما تصفيقاً حادّاً . وما هي إلاّ لمحة حتى يلتهب الجناحان فيبدوان كأنّهما مروحة من نار . ويندمج الطائر بأشعة الشمس حتى ليشكل على الكاهن أن يفرّق بينهما . وما هي إلاّ لمحة أخرى حتى يرتفع الجناحان إلى أعلى ، وقد انقطعا عن التصفيق ، فتبدو كلّ ريشة فيهما كأنّها مشعل من نار حيّة .

يكاد الكاهن لا يصدّق عينيه من شدّة دهشته . فحيث رأى منذ لحظة طائراً حيّاً يرى الآن ألسنة من لهيب تثب إلى فوق . ويا له من لهيب ما سبق له أن أبصر نظيره في كلّ حياته . هو لهيب يرتدّ البصر كليلاً عن بهائه ، وتسكر الأنفاس بعطره . ألا تبارك رَعْ الأزلي الأبدي ، الذي يحيي نفسه بنفسه ويحيي كلّ شيء !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يملأ اللهيب الهيكل بأشباح رائعة كلّها يثب إلى فوق ويتلاشى في وثباته . ورويداً رويداً تخمد النار تاركة حفنة من الرماد المتوهّج .

يا للخسارة أن يهلك طائر بديع كهذا الطائر وفي صورة مفجعة كتلك الصورة . ولكن . . . أحقّاً أنّه قد هلك ؟

يفرك الكاهن عينيه ليتأكّد من أنّه ليس في منام . فيرى — ويا للعجيبة ! — يرى طائراً يخرج من كومة الرماد المتوهّج ، كاملاً بكلّ تفاصيله ، عجيباً بجماله كالطائر الذي التهمته النار منذ لحظة . فكأنّه هو . بل هو هو . فيهبط الكاهن على ركبتيه ، ويغطي عينيه بيديه ، ويحني هامته البيضاء حتّى تلامس الأرض ويتمتم كلمات يكاد لا يسمعها :

« يا رَعْ . أيّها الكائن الجميل الذي يجدّد ذاته في حينه . أيّها الطفل الإلهي . يا وريث الأبديّة . يا والد نفسه . يا أمير الأرجاء السفلى ومدير الأحياء العليا . يا إله الحياة . يا ربّ المجد. كل نسمة تحيا بشعاعك » .

* * *

إنّ خيالاً جريئاً وخصباً ، إذا ما أعطيته مثالاً كمثال الفينكس ، نمّق فيه ووشّى حواشيه إلى ما لا نهاية له . فالقدماء ، مع محافظتهم على الفينكس كطائر يحيا فرداً ويجدّد ذاته بذاته ، قد ابتدعوا أساطير مختلفة لموته وللمدّة التي يحياها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين التجدّد والتجدّد . وما الرواية التي حاولت تصويرها في ما سلف إلاّ واحدة من تلك الروايات الكثيرة التي ضاعت مصادرها في زمان قلّما كان يأبه للأسماء والتواريخ لأنّه كان يهتمّ قبل كلّ شيء بحقائق الحياة الثابتة أو بالفكرة الأبديّة .

لا خلاف على أن اسم الفينكس يوناني . والكلمة تعني ، في بعض ما تعنيه ، نوعاً من النخيل . ولعلّ اليونان عرفوا ذلك النوع في بلاد فينيقية أوّلاً فأسموه باسم البلاد . أو لعلّهم أسموا البلاد باسم ذلك النوع من النخل لأنّه كان يكثر فيها . وقد يكون أنّهم أطلقوا اسم الفينكس على ذلك الطائر الخرافيّ لأنّهم أخذوا الأسطورة عن الفينيقيّين . وفي الفقرة الآتية من نشيد بولاق للإله رَعْ ما يدعم الظن بأن اسم الفينكس مأخوذ من فينيقية :

« المجد له في الهيكل عندما ينهض من بيت النار . الآلهة كلّها تحبّ أريجه عندما يقترب من بلاد العرب . هو ربّ الندى عندما يأتي من ماتان . ها هو يدنو بجماله اللامع من فينيقية محفوفاً بالآلهة » .

إن يكن أصل الاسم في شك فأصل الطائر ذاته أكثر تعقّداً من الاسم . فقد يكون فينيقيّاً . وقد يكون مصريّاً . وأقرب شبيه له في قديم الآثار الكتابيّة تقع عليه في ذلك السِّفر المصري العجيب المعروف « بكتاب الموتى » . وهو مجموعة فصول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شائقة في الأمور الباطنيّة والفلسفة والشعر والسحر يرجع بعضها إلى القرن الأربعين قبل الميلاد . ولعلّ هذه المجموعة هي أثمن ما ورثناه عن سكّان وادي النيل القدماء . فهي من أوّلها إلى آخرها تنبض بإيمان المصريّين بالخلود . فالموت عندهم ما كان إلاّ سياحة بين عالمَين أو انتقالاً من شاطىء الحياة الأدنى إلى شاطئها الأقصى . وإذ أنّ حكماءهم كانوا يدركون كلّ الإدراك أن العامة من الناس أجهل من أن تتناول الحقيقة مجرّدةً عن الحسّ تراهم أقاموا لها بنايات عديدة من الرموز كيما يسهّلوا عليهم الوصول بالحسّ إلى ما هو أبعد من الحسّ . وكان أحد رموزهم طائراً من نوع الغرنوق أو مالك الحزين . وكانوا يدعونه « بنّو » والاسم مشتقّ من كلمة تعني الرجوع . وهذا الطائر كان يمثّل في أساطيرهم وعلى رأسه ريشتان منحنيتان إلى خلف .

مَن يطالع كتاب الموتى يرَ أنّ طائر البنّو كان يرمز إلى رَعْ — الإله الذي ولد نفسه من نفسه وما كان يعرف الموت . النهار المنبثق من حقوَي الليل ، والنور المتغلّب أبداً على الظلمة . فمن هذا القبيل ، وكذلك من حيث الصلة بينه وبين هليوبوليس نرى أن طائر البنّو يشترك في بعض خصائص الفينكس . غير أنّه ليس مذكوراً في كتاب الموتى أو في كتاب آخر كطائر يموت بالنار مرّة في كلّ خمسمائة سنة أو أكثر ثمّ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينهض متجدّداً من رماده .

إلاّ أنّ كاهناً مصريّاً اسمه « هورابولّو » قد أوجد صلة متينة بين الطائر المصري والفينكس . وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد ، ففي الترجمة اليونانيّة لكتاباته نسمعه يتكلّم عن طائر معروف عند المصريّين وفي تقاليدهم . واسمه في الترجمة اليونانيّة « فينكس » . وبعد أن يتكلّم هورابولّو عن ظهور هذا الطائر مرّةً في كلّ خمسمائة سنة يصف موته هكذا :

« عندما يشعر الفينكس بدنوّ أجله يطرح نفسه بعنف على الأرض فينجرح ويسيل دمه . ومن دمه المتجمّد يولد فينكس جديد . وهذا حالما يكتسي بالريش يطير بوالده إلى هليوبوليس . وإذ يبلغانها يموت الوالد عند شروق الشمس . فيحرقه الكهنة المصريّون . وأمّا الفينكس الجديد فينطلق إلى بلاده » .

من بعد هورابولّو أخذت حكاية الفينكس تنتشر وتزداد شهرة في الغرب إلى حدّ أنّها استرعت انتباه المؤرّخين والشعراء واللاهوتيّين القدماء . ومنهم هيرودوتس . فهذا المؤرّخ ، في سياق وصفه لسياحة قام بها في مصر ، يتكلّم عن الفينكس كما لو كان طائراً عربيّاً . ثمّ يضيف متحفّظاً : « أمّا أنا فلم أبصره إلاّ في الصور » . لكن الشاعر أوفيد لا يتحفّظ أبداً في وصفه . فهو يتحدّث عن الفينكس كطائر يجدّد ذاته بذاته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتغذّى بالعطور لا غير . ويقول إنّه بعد أن يعيش خمسمائة سنة يبني لذاته عشّاً من القرفة والناردين والمرّ في رأس نخلة . وفي ذلك العشّ يلفظ آخر أنحابه . ومن جثّته يولد فينكس جديد . وهذا ، عندما تكتمل قواه ، ينتشل العشّ الذي هو مهده ولحد والده ويطير به إلى هليوبوليس حيث يضعه في هيكل الشمس .

وأكثر جرأة من الشاعر أوفيد المؤرّخ تاسيتوس الذي لا يتردّد في ذكر ظهور الفينكس كحادث تاريخي في زمان القنصل بولس فابيوس (٣٤ م) .

هكذا درجت حكاية الفينكس على ألسنة القدماء وأقلام كتّابهم وشعرائهم . وكان آباء الكنيسة أكثر الناس إقبالاً عليها. فقد اتّخذها أمثال ترتوليانوس وكليمنضوس وأبيفانيوس رمزاً لقيامة المسيح من الموت . وغيرهم وجد فيها شاهداً لا يُدحض على ولادة المسيح من عذراء .

مِن أقدم الآثار الكنسيّة التي ورد فيها ذكر الفينكس كتاب « الفيزيولوغوس » الإسكندري . وهو مجموعة حكايات وثنيّة عن الحيوانات والطيور استخلص منها جامعوها مواعظ وإرشادات وحججاً دينيّة . وقد ورد فيها أن الفينكس طائر هندي لا يتغذّى بشيء غير الهواء . ومرّةً في كل خمسمائة سنة يقصد إلى هليوبوليس حاملاً أنواع الطيب على جناحيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك يحرق نفسه على مذبح الهيكل . فتخرج من رماده دودة تتحوّل بعد ثلاثة أيّام إلى فينكس كامل . وهذا الفينكس يحيّي الكاهن ثمّ يطير إلى بلاده .

وفي اللاتينيّة كتاب يدعى Anecdota Syriaca أو الحكايات السريانيّة وردت فيه أسطورة الفينكس كما يلي :

« يقولون كذلك إن في بلاد الهند طائراً عظيماً يأتي مرّةً في كل خمسين (كذا) سنة إلى جبل لبنان . وهناك يجمع أطيب العطور وأجمل الأزهار ثمّ يعود إلى الهند . ومجيئه يكون في شهر نيسان . ففي ذلك الشهر يقيم كاهن المنطقة مذبحاً على قمّة جبلٍ عالٍ ويبني حول المذبح شبه بيت من أغصان الكرمة. فيأتي الطائر ويدخل البيت ويقف على المذبح ثمّ يأخذ يصفق بجناحيه حتّى يلتهبا ويلتهب البيت معهما فيصبح الكل رماداً . وبعد ثلاثة أيّام يصعد الكاهن إلى قمّة الجبل ويتفحّص الرماد وفيه يجد دودة صغيرة . والدودة هذه تكبر ثمّ تتحوّل طائراً كالذي احترق . وهذا الطائر يعود من حيث جاء » .

* * *

لقد بقي الإيمان بالفينكس حيّاً حتّى عصر التجدّد (الرنسانس) . وبعد ذاك أخذ يتقهقر من وجه « العلم » الذي لا يؤمن إلاّ بالبرهان « الحسّي » . حتّى أصبح « خرافةً » قلّ من يهتمّ بها . وأكثر الناس لا يعرف منها غير الاسم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنّ الفينكس ما أُدرج في أكفان الإهمال والنسيان إلا من بعد أن خلّف لنا آثاراً لا تمحى من روعة جماله ومعانيه .

ويندر أن تجد أمّة قديمة لم تنسج على مثال الفينكس ولم تخلق لها طائراً قريباً منه . فالعرب قد خلقوا العنقاء والفُرس « السيمورغ » والهنود « غارودا » والصينيّون « فَنْغْ — هْوَانْغ » واليابانيّون « هُوْ — أوْ » . ومن شاء أن يقابل بين رقيّ الأمم الروحي فليقابل بين الطيور التي ابتدعها خيالها . ففي المقابلة درس طريف ولذّة لا تُنكَر .

أمّا أنا فلي لذّة أكبر في درس الفينكس . وقبل أن أودّع هذا الطائر العجيب أُحبّ ، إذا استطعت ذلك ، أن أنفذ إلى سرّه فأعرف القصد من خلقه .

لِنَقُل إنّ الفينكس رمز . ولكن إلى مَ يرمز؟ ألعلّه وليد شوق الإنسان الفاني إلى عدم الفناء ؟ أم لعلّه قناع من الجمال حاكه الوهم لأعين قرّحتها الشناعة ؟ أم هو رؤيا من رؤى الإلهام الذي ينير الآباد بطرفة عين وينشب من خلال الأشكال إلى روح الأشياء وجوهرها ؟

إنّ أكثر البحّاثين الذين وقفت لهم على رأيٍ في الفينكس يتخلّصون منه بقولهم إنّ قدامى المصريّين اتّخذوه رمزاً للشمس في شروقها وغروبها لأنّهم كانوا يعبدون الشمس تحت اسم رَعْ . وإذ انّني لست بالبحّاثة ولا بالعالِمِ الأثري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تراني أبيح لنفسي مخالفة هذا الرأي من غير أن أجلب لذاتي سخط البحّاثين وعداوة العلماء .

لا جدال في أن سواد الشعب المصري القديم كان يتّخذ الشمس معبوداً له . أمّا مؤلّفو كتاب الموتى وشائدو الأهرام ، وخالقو أبي الهول وإيزيس وأوزيرس وأسرارهما ، ومعلمو ديموقريط وبيثاغورس وأفلاطون فكيف تصدّق أنّهم كانوا يعبدون جِرماً سماويّاً — مهما عظم ذلك الجِرم وعجب — وهم قد رادوا الفضاء واكتشفوا سبل النجوم ؟ بل إنّ الشمس لم تكن لمثل هؤلاء غير رمز محسوس لإله غير محسوس — لِرَعْ الوالد ذاته من ذاته ، المحيط بكلّ شيء والذي لا يحيط به شيء ، المبدع الأشكال ولا شكل له ، والخالق البدايات والنهايات ولا بداية له ولا نهاية . وما آلهة المصريّين ، على وفرتها ، سوى صفات متنوعة لذلك الإله الواحد .

إنّ من يقرأ كتاب الموتى — ولو قراءة سطحيّة — لا يسعه أن يقول غير هذا القول . وأنا أجلّ حكماء المصريّين عن حماقة تجعل من الشمس رمزاً لِرَعْ ، ثمّ تخلق الفينكس الذي لم يكن يبصره غير نفرٍ قليل من الناس — وذاك مرّة في خمسة قرون — لتجعله رمزاً للشمس التي يراها كل ذي بصر في كل يوم . إنّما يرمز الفينكس إلى ما هو أبعد من الشمس وأبقى بما لا يقاس — إلى الحياة في مظهريها كمادّة وروح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في خواء الظواهر المتقلّبة تعوّد الناس أن يميّزوا بين نوعين من التغير . وأن يدعوا الواحد حياة والآخر موتاً . أمّا الفينكس فكأنّي به يقول إنّ الموت والحياة واحد لأن مصدرهما واحد . وهو الروح المرموز إليه بالنار . فالنار أبداً هي هي . تلتهم الأشياء ثمّ تكثرها وتنوّعها . لكنّها لا تلتهم ولا تكثر أو تنوّع ذاتها . هي النار — أو الروح — تلك الحياة الأوّلية التي يدعوها العلم الحديث « الطاقة » — تنظّم ذرّات الأشياء على اختلاف أنواعها ثمّ تنثرها . فهي متغلغلة في كل شيء : في ركام الجليد الطافي على وجه اليمّ مثلها في الشمس . وفي الزناد مثلها في كتلة اللحم النابضة في صدر الإنسان . وهي عندما تلتهم شيئاً تردّه إلى عناصره الأصليّة . فلا تتلاشى بل تنعتق من سجنها الوقتي . وهكذا عندما يحرق الفينكس نفسه لا « يموت » حتى لحظة واحدة . لأن النار التي هي روحه تبقى كامنة في رماده . وهي التي تعود فتجمع ذرّاته من جديد فتكوّن منها فينكساً جديداً . فهو وإن بدّل جسده مرّة في كلّ خمسمائة سنة لا يبدل الروح التي لا يطرأ عليها انقطاع أو تغيير .

ثمّ إن الناس يباهون بما يدعونه « نموّاً » و « تقدّماً » . أمّا الفينكس فكأنّي به يقول أن ليس في الحياة نموّ وتقدّم . إذ ان كلّ ما ينمو يحمل في داخله جراثيم انحلاله . وكلّ ما ينحلّ لا يدوم . وكل ما لا يدوم لا وجود أو لا حقيقة له في